مجلة الصحافة

العدد (6) | السنة الثانية | صيف 2017

دول في مواجهة الإعلام
الجولة مستمرة

معهد
الجزيرة للإعلام

محتويات العدد

4 «باز».. جامعة المنصات الاجتماعية
محسن الإفرنجي

8 نشطاء في عالم الصحافة.. دخول من أبواب متفرقة
ماجدة العرامي

16 أنتوني بلايجر.. حديث في الصحافة وحريّاتها
عبد الله مكسور

24 سيكولوجية النشر في مواقع التواصل الاجتماعي
غيداء أبو خيران

30 مباشر من بغداد.. أن تكون القصة
محمد عبد الرحيم

34 وجوه أفريقيا المتعددة تستقطب المراسلين الأجانب
خلود الحدق

40 الصحافة الفلسطينية في العهد العثماني
مهند صلاحات

48 حكاية القرويين مع الإذاعة
اعتماد سلام

54 إشكالية المصطلحات.. إعلام أم اتصال؟
بشير الكبيسي

62 رحلة الصورة الصحفية في الجزائر
رمزي بودينة

مصورون صحفيون في الميدان، الجزائر - تصوير رمزي بودينة.

كتّاب المجلة

محسن الإفرنجي
صحفي ومحاضر جامعي ومدرب إعلامي، مؤسس ورئيس تحرير الشبكة الفلسطينية للإعلام الإنساني «أنسنة». يدرس حاليا الدكتوراه في الإعلام في إسبانيا.

خلود الحدق
كاتبة وصحفية سورية. تعمل بالصحافة المكتوبة منذ عشر سنوات، مهتمة بشؤون الحريات وأدب الطفل.

ماجدة العرامي
صحفية تونسية حاصلة على إجازة في الصحافة، ودبلوم في الصحافة الاستقصائية من مركز فري برس الهولندي.

مهند صلاحات
كاتب فلسطيني ومخرج أفلام مستقل. كتب وأخرج مجموعة من الأفلام الروائية والوثائقية والمسلسلات والبرامج التلفزيونية.

عبد الله مكسور
صحفي سوري يقيم في بلجيكا، مدرب دولي معتمد في السلامة المهنية الصحفية، يكتب في عدد من الصحف العربية.

اعتماد سلام
صحفية مغربية، مقدمة أخبار وبرامج في الإذاعة بالمغرب. تكتب لمنابر صحفية مغربية وعربية.

غيداء أبو خيران
مدونة فلسطينية مقيمة في تركيا. طالبة بكالوريوس علم نفس في جامعة إسطنبول شهير.

بشير الكبيسي
طالب في كلية الإعلام بجامعة البترا - الأردن. كاتب في عدة مواقع إلكترونية.

محمد عبد الرحيم
محرر فيديو، مدون وصحفي موريتاني. مهتم بالسينما والفلسفة واللسانيات.

رمزي بودينة
مصور صحفي، محقق في جريدة «ليكبرسيون» الجزائرية. مراسل مصور صحفي محلي للوكالة الدولية رويترز.

الحجب ولعبة القط والفأر

صيف 2017 لم يحمل موجات حرٍّ عُرف بها الخليج العربي وحسب، بل جاء محمولا بأزمة أكثر «سخونة» من الصيف نفسه.. «مقاطعة الشقيق للشقيق».. أزمة سياسية وإنسانية امتدت لتصل جسد الإعلام نفسه وتدعو إلى دفنه حيا، حينما طالبت «دول الحصار» بإغلاق «الجزيرة» والقنوات التابعة لها، إضافة إلى المنابر الإعلامية المدعومة من قطر، بعد أن كانت قد حجبت قنواتها ومواقعها في بلادها.

لقد أصبح المواطن العربي معتادا على مصطلح «الحجب»، والمحجوب صار لديه القدرة على اختراق الحجب، وفي أكثر من دولة عربية تجتهد في حجب المواقع الإخبارية في زمن أصبح العالم فيه أشبه بصالة تزدحم بالمتاهات بوجود كاميرات مراقبة منصوبة في كل ناحية، باتت لعبة القط والفأر مناسبة كي يمارسها المواطنون العرب مع حكوماتهم التي تحاول منعهم من الوصول إلى مصادر المعلومات.

وعلى مدى تاريخها، شهدت «الجزيرة» اعتقالات لصحفييها واستهدافا لهم حتى استشهد بعضهم أو أصيب بجروح، وهي ليست وحدها في ذلك، فالصحافة أكبر من أي مؤسسة إعلامية، والأخطار التي تحدق بالصحفيين لن تفرق بينهم ولا بين أسماء مؤسساتهم، بل ستستهدف أي صحفي جاد باحث عن الحقيقة.

في هذا المناخ، لم تتأثر شاشة «الجزيرة» ولا مواقعها الإلكترونية ولا منصاتها أو تغطياتها، وبدا العاملون فيها كأنما يراقبون زوبعة بعيدة تحملها رياح المنطق وحرية التعبير والصحافة وإيمان العاملين فيها بعملهم؛ إلى أماكن أخرى.

في ظرف كهذا، تعاني فيه البلاد العربية من التشتت والتمزق، وتقاوم فيه الصحافة محاولات الإسكات، يلتئم شمل عشرة صحفيين عرب في هذا العدد السادس من مجلة «الصحافة».

فريق المجلة

مجلة الصحافة

العدد (6) I السنة الثانية I صيف 2017
مجلة فصلية تصدر عن
معهد الجزيرة للإعلام
شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام
منير الدائمي

رئيس التحرير
منتصر مرعي

سكرتير التحرير
غدير أبو سنينة

مراجعة لغوية
الفضيل بن السعيد

تصميم
إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

مجلة الصحافة
Aljazeera Journalism Review

موقع الإنترنت:
/http://institute.aljazeera.net/ar/ajr

تويتر:
@AJR_Arabic

فيسبوك:
www.facebook.com/
aljazeerajournalismreview

بريد المجلة الإلكتروني:
ajreditor@aljazeera.net

«باز».. جامعة المنصات الاجتماعية

محسن الإفرنجي

تسهم التقنيات المتطورة المستخدمة في «باز» بنشر تدوينات المستخدم على المنصة ومشاركتها فورا على حساباته في الفيسبوك وتويتر، كما تمكّن من مشاركة المنشورات من أي حساب إلى أي حساب آخر بسهولة ومن مكان واحد.

تعددت منصات التواصل الاجتماعي العربية مؤخراً في محاولة لاجتذاب الجمهور العربي إليها، رغم التحديات الجسام والمنافسة الشرسة مع منصات التواصل العالمية وعلى رأسها الفيسبوك، غير أن واحدةً من بين تلك المنصات استطاعت أن تجد لها مكاناً على خارطة الشبكات الاجتماعية.

المنصة العربية الشابة «باز» انطلقت بروح العصر، وتميزت بأنها تجمع معظم المنصات والشبكات التي يستخدمها النشطاء في مكان واحد، إلى جانب عرض الأخبار و«الترندات» المشهورة من قصص وأحداث وغيرها، لتجعل كل ما يريده المستخدم في مكان واحد.

و«باز» (Baaz) التي انطلقت بنسختها التجريبية في ديسمبر/كانون الأول 2016، تحمل اسم طيور جارحة لديها القدرة على الطير على نطاق مساحات واسعة وعلى ارتفاعات عالية، في إشارة إلى أنها تمنح المستخدم رؤية أوسع لرؤية العالم من الأعلى، وقد تم تسجيلها كمنصة عربية رسميا في الولايات المتحدة، حيث مقرها الرئيسي في سان فرانسيسكو ولها مكاتب إقليمية في أوروبا والشرق الأوسط.

وقد حصلت على جائزة المنصة الداعمة لحملات النشر باللغة العربية، ضمن فعاليات قمة التواصل الاجتماعي الأخيرة في دبي تكريما لحملتها التي أطلقتها في ديسمبر/كانون الأول 2016 تزامنا مع انطلاقتها.

ما الجديد؟

مديرة التنمية المجتمعية في «باز» لمى حدادين تقول لمجلة "الصحافة» عن مزايا المنصة: «باز تجسد الجيل الجديد من منصات التواصل الاجتماعي، حيث توفر العديد من المزايا للمستخدم العربي، وعلى رأسها المزايا الأساسية التي توفرها المنصات الأخرى كالمتابعة وتكوين الصداقات ومشاركة ونشر المنشورات الخاصة بجميع أنواعها (نصوص، صور، فيديو، روابط خارجية)».

وتسهم التقنيات المتطورة المستخدمة في «باز» -وفق حدادين- بنشر تدوينات المستخدم النصية والمرئية وغيرها على منصة باز ومشاركتها فورا على حساباته في الفيسبوك وتويتر وغيرهما. كما تتيح للمستخدم إمكانية مشاركة (share) المنشورات من أي حساب إلى أي حساب آخر بكل سهولة ومن مكان واحد، إلى جانب الربط مع أكثر من 220 خدمة "أر.أس.أس" (RSS) مختلفة مثل «ديلي موشن» (Daily Motion) و"غود ريدز" (Good reads) و»وورد برس» (Wordpress) والعديد من تلك المواقع بكافة اختصاصاتها.

وثمة خدمات تقليدية أخرى توفرها مثل: التعليق على منشورات الأصدقاء أو المتابعين والإعجاب بها، وإعادة إرسال المشاركات عبر رسائل خاصة أو إلى حسابات المستخدم على الشبكات الأخرى، وخدمة المحادثات (Discussion) بحيث يستطيع المستخدم إجراء محادثات فردية أو إنشاء مجموعات دردشة ونقاش مع أصدقائه في "باز"، وغيرها من الخدمات التفاعلية.

لكن ما الجديد والمميز في «باز»؟ تقول لمى حدادين «تمكين المستخدم من عرض كافة شبكات التواصل الاجتماعي المشترك فيها على صفحته الرئيسة "بازلاين" (Baazline) بحيث يمكن لأي صديق مضاف عنده الوصول إلى حساباته دون عناء وبكل يسر وسهولة، وهي ميزة لا تتوفر في المنصات الأخرى العربية أو العالمية".

هروباً من فوضى المنصات

الناشط أحمد عبيدات -أحد «البازيين» كما يطلقون على مستخدمي المنصة- يتفق مع حدادين في عرضها لمزايا المنصة، معتبرا إياها بمثابة «سلم الهروب» من فوضى المنصات الأخرى.. "كي أكون قادراً على كتابة ما أريد وقتما أريد دونما خوف من حذف منشوري لأي أسباب كانت، خصوصاً إن كان مناهضاً للسامية كما دأبت الفيسبوك على ادعائه».

وكانت إدارة الفيسبوك قد أغلقت عشرات الصفحات لنشطاء فلسطينيين بتهمة «التحريض» و"إثر ضغوط تعرضت لها من دولة الاحتلال الإسرائيلي» وفق ما أعلنته مصادر فلسطينية.

وتدعم المنصة اللغتين العربية والإنجليزية، ويمكن تنصيبها على أجهزة الحواسيب المكتبية والمحمولة، بحيث تكون جميع شاشاتها معربة حسب رغبة المستخدم وما يتناسب مع طريقة استخدامه، خاصة أنها طورت باستخدام أحدث التقنيات مع مراعاة لأفضل درجات الحماية والخصوصية الشخصية، بحيث «تشابه تقنيات الأمان والحماية المستخدمة فيها إلى حد كبير ما تستخدمه خدمة سكايب» وفق ما صرح به مؤسسوها لوسائل الإعلام.

مزايا باز

انتشار واسع

وسّع نطاقك عبر جمهور واسع ذو اتجاهات واهتمامات مماثلة.

محور مركزي للأخبار الاجتماعية

اكتشف وتبادل الأخبار التي تهمك عبر مئات القنوات الاجتماعية.

تواصل دائم

شارك المواضيع مع العائلة والأصدقاء أينما كنت.

مكان واحد لحسابات متعددة

تصفح وشارك المواضيع من جميع شبكاتك الاجتماعية الخاصة.

وأضافت «باز» للناشط عبيدات خدمة غير موجودة في باقي المنصات، وهي «إمكانية البقاء على اطلاع دائم وحرية اختيار ما أريد متابعته من المواضيع الشائعة، دون إجباري على متابعة الكثير من الموضوعات المنشورة عشوائياً".

وبخصوص مدى الإقبال على التسجيل في "باز"، يقول محمد الشيخ يوسف -أحد أعضاء فريق التطوير المجتمعي في المنصة: "لدينا عشرات الآلاف من المستخدمين، وأتوقع أن يتزايد العدد بصورة أوسع في الأشهر القادمة".

وأوضح أن المنصة تسعى لتطبيق «آليات جديدة في نظام التسويق أوسع من التسويق الفردي المستخدم حاليا، بغرض الحصول على تفاعل وتغذية عكسية من المستخدمين».

تحليل محتوى الأخبار

ومن أكثر القضايا التي تتنافس عليها المنصات الاجتماعية اليوم هي نشر الأخبار، غير أنها تجاوزت حدودها في كثير من الأحيان عبر نشر الأخبار الكاذبة (Fake News) والإشاعات. "المنافسة لا تنحصر فقط في نشر الأخبار، بل من خلال تقديم القصة كاملة حول أي خبر أو موضوع متداول، فمن مكان واحد يستطيع المستخدم المتابع أن يرى بمنظار أوسع كل ما يحدث حوله، دون تحيز أو انتقاء في اختيار المحتوى، مع ترك الخيار للمستخدم في متابعة الوجهة التي تناسبه ومشاركة رأيه الخاص»، وفق ما تقوله مديرة التنمية المجتمعية في «باز».

وتوضح حدادين أن «باز» لا تتدخل في أي من الأخبار التي تظهر على شكل مواضيع شائعة أو تنتقيها، حيث «تظهر وفق خوارزميات تسمح للمنصة بتجميع كل ما يكتب حول موضوع شائع، وتقديمها على شكل قصة كاملة».

وماذا عن ميزة تحليل المحتوى في «باز» وعلاقتها بالنشر الإخباري؟

تتابع حدادين: «تحتوي المنصة على ميزة تحليل المحتوى عبر استخراج الكلمات المفتاحية الموجودة في أي منشور، سواء المنشورات التي تم نشرها مباشرة عليها، أو تلك التي تجمعت في "باز" عبر ربط الحسابات الخارجية. وبعد استخراج تلك الكلمات تتولى المنصة تجميع المنشورات التي تضم نفس الكلمات المفتاحية وتجمعها في مواضيع متشابهة».

وتطلق المنصة على هذه الخدمة اسم «الأخبار المتداولة/المواضيع الشائعة»، مصنفة حسب الموضوعات (سياسة، رياضة، اقتصاد.. إلخ) وحسب البلد، بحيث تدعم «باز» جميع البلدان العربية بالإضافة إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا، ويتسلم المستخدم تنبيهاً في كل مرة يتم إضافة أي تحديث للخبر المُتابع، وهو ما سيبقيه على اطلاع بآخر المستجدات حول الخبر أو الموضوع، كما يستطيع الضغط على وصلة الإحصاءات لمعرفة البلدان التي نشرت منها المشاركات التي يحتويها الخبر.

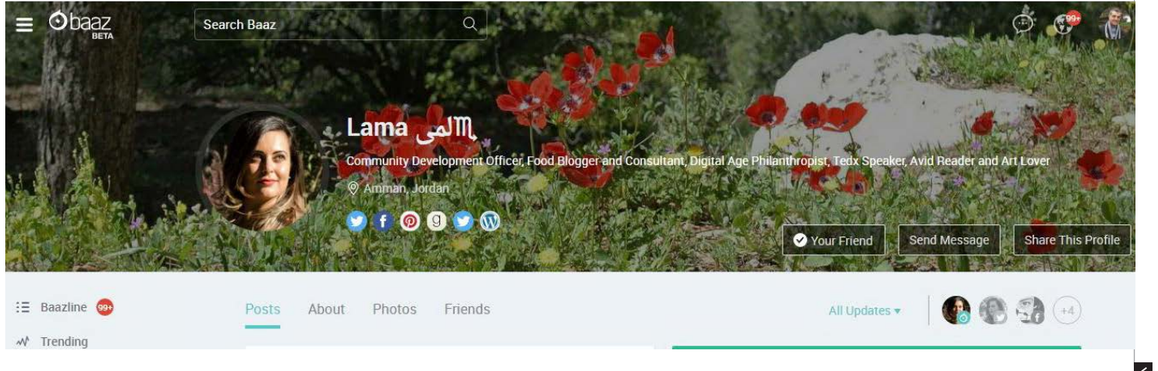

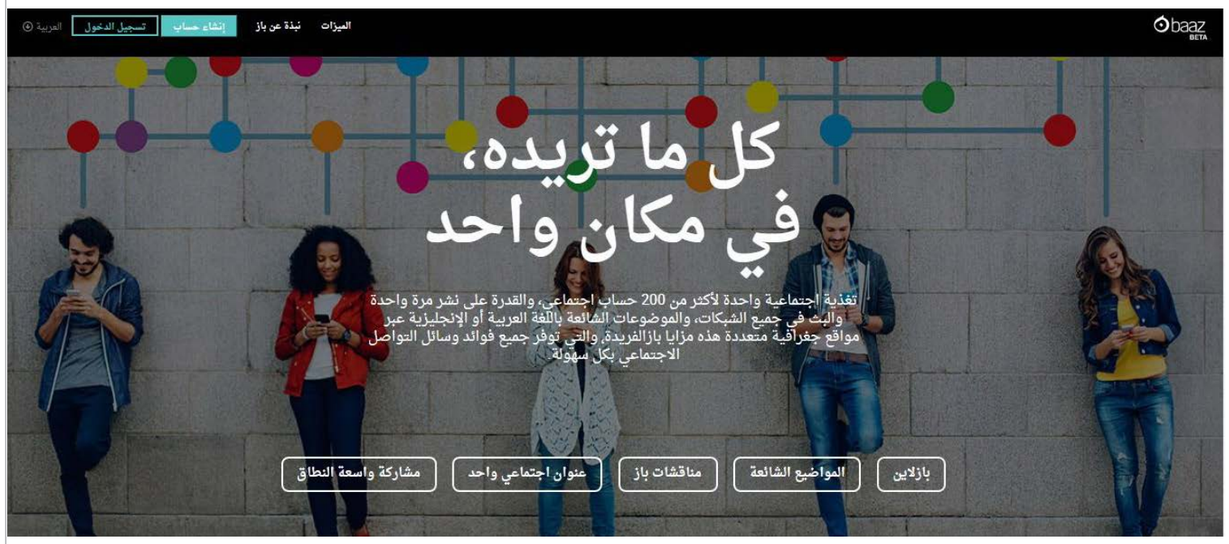

لمى حدادين، مديرة التنمية المجتمعية في «باز».

نشطاء في عالم الصحافة.. دخول من أبواب متفرقة

ماجدة العرامي

فرض الحراك من ثورات وانتفاضات في العالم العربي قواعد جديدة على مهنة الصحافة، ورضخت معظم المؤسسات الإعلامية للواقع الجديد، وأفسحت المجال للناشط السياسي والمواطنين ليشقوا طريقهم في حقل الصحافة.

لم يظهر مصطلح «صحافة المواطنة» جليا إلا بعد ثورات الربيع العربي. تونس 24 يناير/كانون الثاني 2011 - رويترز.

تعود بدايات ظهور عبارة «صحافة المواطنة" إلى العام 1963 في الولايات المتحدة، حين صوّر حشد من المواطنين عفويا بكاميراتهم جريمة اغتيال الرئيس الأميركي جون كينيدي أثناء زيارته لمدينة دالاس.

وقد بيعت اللقطة الموثقة لتفاصيل الاغتيال إلى القنوات التلفزية ووكالات الأنباء بمبالغ طائلة، فلاقى المواطنون الشاهدون استحسان وسائل الإعلام آنذاك، وجاءت فكرة إشراك المواطن في نقل الأحداث.

أما في العالم العربي -ورغم مجاراتنا سرعة التكنولوجيا- فلم يظهر مصطلح «صحافة المواطنة» جليا إلا بعد ثورات الربيع العربي، ولا يعود ذلك إلى غيابها عن الساحة، بل إلى غياب الصور المجسدة لها فعليا.

قد يلحظ الدور الكبير للثورة التونسية عام 2011 في ذلك؛ فهي لم تعزز تأجج الطموح لدى الصحفي فقط بالبحث عن المعلومة ونقلها، بل خلقت لدى المواطن أيضا نوعا من الرغبة في المشاركة الفعلية في تصوير الحدث ونقله، وربما أبعد من ذلك، خلقت فرصة للبعض للولوج كليا إلى عالم الصحافة وممارستها، ليس كهواية وترجمة لفكرة «الصحافة التشاركية» فحسب، بل كمهنة رسمية بعيدا عن الشروط والمقررات الكلاسيكية. فهل يعد بروز أفراد من اختصاصات أخرى ونشطاء إلى عالم الصحافة ضربا من ضروب الارتقاء بها عن المعايير الكلاسيكية، أم محاولة لاختراق «مركزيتها» كاختصاص مستقل؟

سرعة الأحداث وتغير المعايير

مع تطور التكنولوجيا الحديثة في البلدان العربية، وقيام الهبات الشعبية التي نادت بإسقاط الأنظمة، برز مفهوم مصطلح "المواطن الصحفي» الذي بدا للوهلة الأولى غريبا على آذاننا، إلا أنه سرعان ما أصبح مألوفا أمام أعيننا، فصرنا نجد طالب الطب أحيانا مراسلا تلفزيونيا ودارس العلوم يحمل الميكروفون وينقل الأحداث السياسية والاجتماعية بعيدا عن الشروط والمعايير المتعارف عليها لمفهوم «الاحتراف".

يدخل البعض عالم الصحافة من أبواب الدراية والمتابعة والشغف بالسياسة.. خليل الكلاعي، الصحفي وخريج الهندسة أبرز مثال على ذلك. يربط خليل الخطوة الأولى لالتحاقه بالصحافة بنشاطه السياسي ومشاركته في الاحتجاجات الشعبية، كما يربط نجاح الثورة بنجاح بعض النشطاء في البروز كصحفيين محترفين.. "نشطتُ في حزب معارض بين عامي 2007 و2011، ومع قيام الثورة في بلدي تونس وتغير المناخ السياسي، بالإضافة إلى مواكبتي للوقائع الاجتماعية ونشاطي في حزب معارض لبن علي في سنوات ما قبل الثورة، وكذا وجودي في قلب الحراك الشعبي، وجدتُ أن الحلم بالتغيير بات قريبا، وتعزّز آنذاك شغفي بمهنة الصحافة، فلم أتردد في التقدم إلى العمل بقناة الجنوبية التي كانت مستهل تجاربي المهنية المتواصلة حتى اللحظة».

لم يختلف مسار أمان الله المنصوري أيضا، إذ كانت ثورة 14 يناير/كانون الثاني ونشاطه السياسي النقطتين الفاصلتين في تغيير بوصلته المهنية.

فعندما أراد المنصوري فك العزلة الإعلامية عن والده السجين السياسي الذي خاض حرب الأمعاء الخاوية بإضرابه عن الطعام لمدة 33 يوما، لم يجد غير التدوين متنفسا لكسر سياسة التعتيم الإعلامي وفرصة للتواصل مع العالم الخارجي للتعريف بقضيته، بعد تجاهله من طرف الإعلام المحلي الخاضع لسلطة الرقابة. وهكذا كانت البداية مع إنشاء صفحة فيسبوك تهتم بالوقائع السياسية في البلاد والتدوين النقدي، لكنها تعرضت للحجب والتتبع الأمني. ومع قيام الثورة وبروز اسمه كمدون سياسي وناقل للأخبار الوطنية، أصبحت العروض متاحة للمنصوري في كبرى القنوات.. ويعلق على ذلك بقوله «ترددت كثيرا، خاصة أنني لم أدرس الصحافة.. كنت أعتقد أن بيئة العمل الصحفي مقتصرة على خريجي جامعاته المتخصصة، لكن بعد تجربتي الأولى التي كانت بلبنان، فهمت أن الدورات

تزامنت الثورات الشعبية مع الثورة الرقمية وسطوع نجم المواطن الصحفي.
تصوير: كريستوفر فورلونغ - غيتي.

التدريبية والمهارات المعرفية كافية لاكتساب الخبرة، ودافع لامتهان الصحافة على الوجه الأكمل».

بين الثورة الشعبية والثورة الرقمية يسطع نجم «المواطن الصحفي»

لئن ربط البعض بروز وجوه جديدة عرفت بنشاطها السياسي بقيام ثورة 14 يناير، يشير البعض الآخر إلى "الثورة الرقمية".. يقول الناشط الحقوقي والصحفي السوري عمر الشيخ إبراهيم "مع قيام الثورات، لا ننسى الحدث الذي سبق، وهو الانتشار الواسع للهواتف المحمولة، مما خلق نسبة ميول فردية كبيرة ليساهم المواطن في نقل الواقع ونقل آلام الشعوب الثائرة، وجعل من المواطن والناشط السياسي صحفيا".

أحبَّ عمر مهنة الصحافة لكنه لم يمتهنها بصفة رسمية إلا بعد قيام ثورتي تونس وسوريا، فقد كان يتنقل بين تنظيم المؤتمرات والمظاهرات السلمية، لكن خبرته بالواقعين السياسيين التونسي والسوري جعلت عمله صحفيا خيارا متاحا وسهلا.. "تزامنت فترة إقامتي بتونس مع الطفرة الكبيرة التي شهدها واقعها الإعلامي.. نشطتُ بداية في تنظيم المظاهرات والمؤتمرات التي تهتم بالداخل السوري من تونس، وقد ساعدني اطلاعي بعد مدة وجيزة على المناخ الحزبي والشخصيات السياسية في تونس على أن أعمل صحفيا بإذاعة «كلمة»، ومن هناك كانت البداية التي تنوعت فيها المهام وتعددت الأماكن من تونس إلى ليبيا ومن ليبيا إلى تركيا».

أمان الله المنصوري.

صعوبات ونقائص

لم تخلُ قصص الولوج إلى المجال الإعلامي من العنصر الأنثوي، فشهادة مريم العثماني -وهي واحدة من الصحفيات والمذيعات اللاتي حجزن مقعدا إعلاميا في قناة "الزيتونة" التونسية- تشير إلى أن الموهبة والشغف والطموح الذي يعلو ولا يعلى عليه؛ "معيار نجاح الصحفي".

ومع إيمانها بذلك وجدت مريم صعوبات كثيرة وبعض النقد، خاصة أنها لم تكن خريجة كلية الإعلام.. "يكفي أن نجد ميولا إلى العمل الصحفي حتى نبدع ونتألق، كما يجب أن نركز على فك طلاسم العبارات الصحفية بالمطالعة وتكثيف الدورات التدريبية في المراكز المختصة حتى ننجح. فقبل أن أدخل المجال، تدربت كثيرا أمام الكاميرات ومع مراكز أجنبية، ومع هذا، لا أنكر تعرضي للنقد المباشر وغير المباشر بسبب ولوجي إلى هذا العالم؛ فقط لأنني لست خريجة معهد الصحافة».

المجال ومستقبله.

لم تنكر الصحفية سميحة الهلالي التي تعمل بجريدة «الصحافة»، وجود العشرات من النشطاء الوافدين إلى قطاع الإعلام ممن تألقوا بشكل ملحوظ، لكنها ربطت هذا النجاح فقط بالاعتماد على الدورات التدريبية وتوجيه زملائهم من المحترفين.

وتصر سميحة في الوقت ذاته على ضرورة تقيد أي شخص مهما كان موهوبا بالتكوين الأكاديمي بمعهد الصحافة، ليكون ملما وعلى دراية بأخلاقيات المهنة التي تعد خطا أحمر.. «صحيح أن الموهبة مهمة جدا، وهناك من يشتغل في مؤسستنا وهو ليس خريج إعلام، لكنني ضد فتح الباب على مصراعيه للجميع لامتهان الصحافة، ولا أهلل بهذا الشيء الذي ربما يفقد مهنتنا في المستقبل القريب

أهمية التكوين الأكاديمي المختص

قد تعكس آراء بعض الصحفيين المحترفين إقرارا بنجاح البعض ممن تحولوا من نشطاء وأصحاب اختصاصات أخرى إلى صحفيين، لكنهم في الوقت ذاته يجمعون على ضرورة التكوين الأكاديمي المختص حتى لا تقع أخطاء هؤلاء على واقع

مريم العثماني.

خصوصيتها، خاصة أننا نعيش في عصر الاختصاصات وتكامل الأدوار».

ناصر المكني -وهو أكاديمي بمعهد الصحافة، درَّس أجيالا ومارس العمل الصحفي منذ التسعينيات- يعارض بدوره فكرة التحاق أفراد من آفاق مختلفة بمهنة الصحافة دون تلقي تكوين أكاديمي لسنتين على الأقل في معاهد مختصة.. «صار هناك خلط بين المفاهيم وخطأ في فهم المواثيق الدولية.. صحيح أنها تجيز للمواطن الحرية في التعبير عن رأيه، لكن نجد أن الغالبية فهموا هذه المواثيق خطأ.. حرية التعبير عن الرأي ليست أن يزعم من لم يتحصل على شهادة جامعية في الصحافة أنه صحفي.. كلنا يعلم أن مهنة الصحافة تعد مجالا خاصا ولها شروط خاصة يحددها القانون، فحتى أستاذ التاريخ يكتب والأديب كذلك والسينمائي ينقل الواقع، لكنهم لا يحملون صفة صحفي، على عكس هؤلاء الذين تحصلوا عليها».

بتغيّر المفاهيم وسرعة الأحداث التي تدور رحاها سريعا وبقيام ثورات الربيع العربي، ظهرت الحاجة إلى إعلام بديل يساهم فيه الصحفي والمواطن سويا. ولئن ظهر عدد ملحوظ من الناشطين والسياسيين على شاشات الأخبار في السنوات الأخيرة كمحررين ومذيعين، ففي المقابل انصرف بعض الصحفيين إلى عالم السياسة، ولربما يكون هذا بداية عصر جديد يشهده مجال الصحافة!

يرى صحفيون محترفون أنه لا يمكن فتح الباب على مصراعيه للجميع لامتهان الصحافة. الصورة من أمام نقابة الصحفيين التونسيين ، تصوير: كيم بدوي - غيتي.

أنتوني بلايجر.. حديث في الصحافة وحريّاتها

عبد الله مكسور

التقارير الخاصة بالشرق الأوسط صادمة منذ سنوات، فسوريا والعراق ضمن الدول الأسوأ إطلاقاً بالنسبة للصحافة، والتضييق يشمل دولاً أخرى لا تخرجُ من قائمة طويلة تمتد عبر قارات ثلاث.

يشير القطار بقرب الوصول إلى محطة «شومان» في قلب العاصمة البلجيكية بروكسل، هناك تأخذني الخطوات خروجاً نحو مركز المفوضية الأوروبية في الساحة الكبيرة التي حملت اسم «شومان بالاس»، حيث يقع مركز الاتحاد الدولي للصحفيين، وفيه ستلتقي «مجلة الصحافة» أنتوني بلايجر الأمين العام للاتحاد الذي يجمع تحت مظلته أكثر من 60 ألف صحفي حول العالم.

تحضرني الآن قائمة طويلة بأسماء وصور الراحلين مِن صحفيين قضوا خلال مهمات عديدة في عواصم ومناطق انتشرت على امتداد النقاط الساخنة في هذا العالم المفتوح على الأحداث اللاهبة، أسماء وصور احتلت لسنوات الصفحات الأولى لتقارير عالمية خاصة بحرية الصحافة، بينما ظلّت حروفها عندما نتعاطاها -نحن الصحفيين- مجبولة بكثير من الألم والترقب لمصير مشابه.

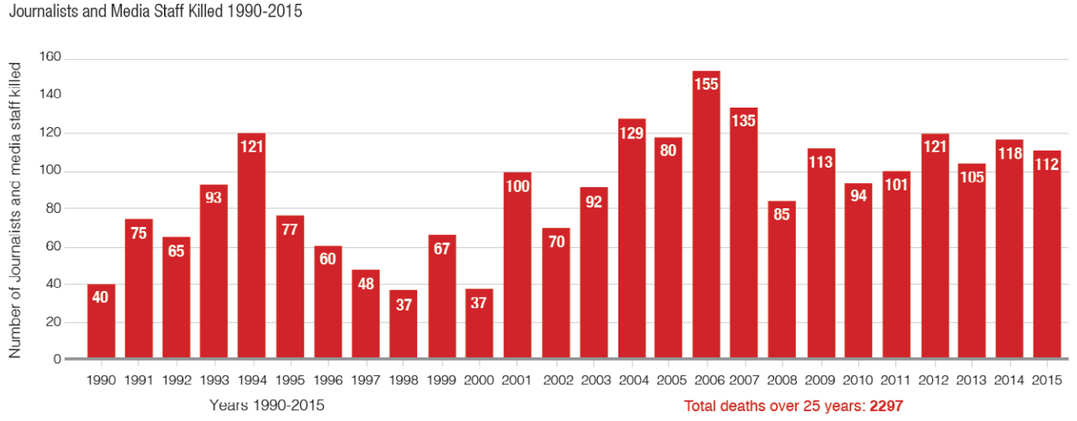

رسم بياني لصحفيين وعاملين بالإعلام قتلوا بين عامي 1990 و2015 - الاتحاد الدولي للصحفيين.

لقاء في بروكسل

في الطابق الخامس من مبنى «ريزيدانس بالاس» يقع مقر الاتحاد الدولي للصحفيين، وفيه التقيت أنتوني بلايجر الذي تولى الأمانة العامة للاتحاد منذ العام 2015. ولد بلايجر في لومونس الفرنسية يوم 23 أغسطس/آب 1973، ودرس مراحله الأولى في مسقط رأسه غربي فرنسا قبل أن يدخل جامعة المدينة متخصصا في التاريخ القديم حيث أنهى البكالريوس عام 1992، ليتابع دراسته الأكاديمية في جامعة «أونجي» في اختصاص دراسة تاريخ القرون الوسطى منهياً درجة الماجستير عام 1998 والدكتوراه عام 2003. بدأ حياته الصحفية باكراً كمتطوع، حيث انتظم في العمل بمؤسسات متنوعة قبل أن ينضم إلى نقابة الصحفيين الفرنسيين ويبدأ حياته النقابية من خلال العمل في المنظمات الدولية، قبل أن تحط به الرحال نائباً للأمين العام للاتحاد عام 2014 ثم أميناً عاماً في 2015.

خلال مسيرته المهنية امتلك بلايجر اطلاعاً واسعاً على الواقع الصحفي في بلدان عدة بين الشرق والغرب، يتحدث بتفاصيل كثيرة تتعلق بأماكن زارها في العراق وفلسطين والمغرب وباكستان وغيرها.

من زياراته المكوكية يستحضر التقارير العالمية الخاصة بالشرق الأوسط منذ سنوات، فسوريا والعراق هي الدول الأسوأ إطلاقاً بالنسبة للصحافة.. التضييق يشمل دولاً أخرى لا تخرجُ من قائمة طويلة تمتد عبر قارات ثلاث. 13٪ من سكان العالم ينعمون بصحافة حرة بينما يعيش نحو 46٪ في دول تنعدم فيها حرية الصحافة، ويبقى 31٪ لشعوب تتمتع بحريات محدودة بالنسبة للعمل الصحفي. يقول بلايجر إنه من الصعب الحديث عن هذه الأوضاع، وذلك لتعقيد الملفات الخاصة بالشرق الأوسط، لاسيما فيما يتعلق بالحكومات.

ليس التفكير في أن تكون صحفيا هذه الأيام بالأمر الهيِّن، في ظل تقارير صادمة تسلّط الضوء على الفترة بين عامي 1990 و2015. تتحدث هذه التقارير عن مقتل أكثر من 300 صحفي في العراق، و146 في الفلبين، و120 في المكسيك، و109 في روسيا الاتحادية، و106 في الجزائر، و95 في الهند، و75 في الصومال، و67 في سوريا، و62 في البرازيل، و56 في كولومبيا، و51 في رواندا، و48 في يوغسلافيا، و45 في أفغانستان، والأرقام في ازدياد.

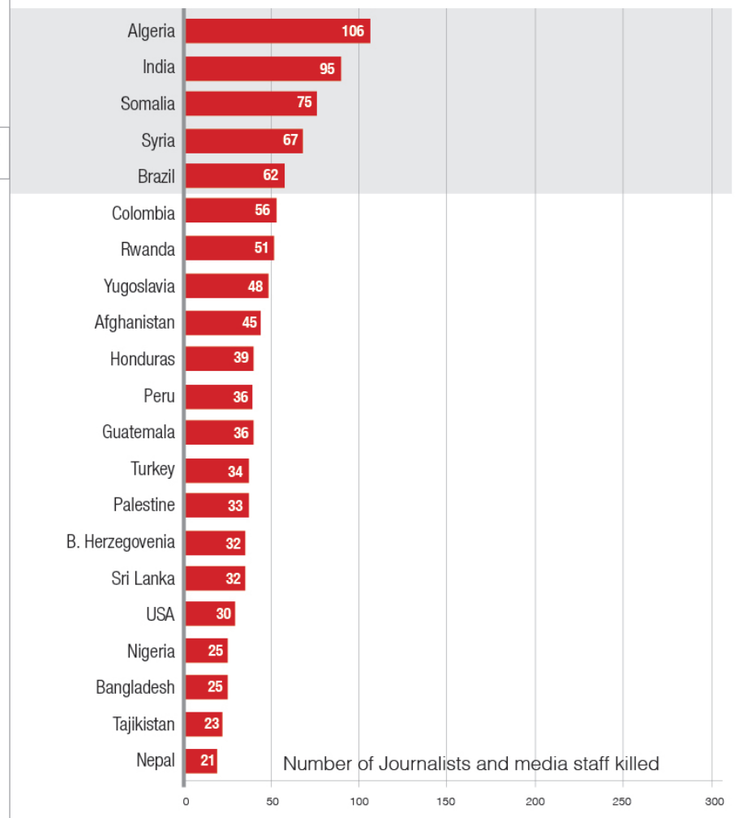

رسم توضيحي للدول الأكثر خطراً على الصحفيين في العالم بين عامي 1990 و2015 - الاتحاد الدولي للصحفيين.

بين ثنائيَّتين

في الحديث عن ثنائية حرية الصحافة والصحافة الحرة، أسأل الأمين العام للاتحاد الدولي للصحفيين عن مساعي الاتحاد

في هذا الاتجاه ليقول: من خلال التجربة في القارة الأوروبية يمكنك أن تكون صحفياً حراً، لكن عليك العمل على وجود صحافة حرة.. هذه الثنائية خاضعة لجملة من القوانين والضوابط، هنا -بحسب بلايجر- يبرز ذكاء الصحفيين في التعامل مع الدكتاتور في سوريا واليمن والعراق مثالاً.. الرغبة في الصحافة الحرة عالية، لكن الإمكانيات محدودة وهذا ما رأيناه خلال السنوات السابقة. ومع انطلاق الربيع العربي لم يختلف الواقع أبداً هناك.. جهات كثيرة تتدخل في عمل الصحافة، دور الاتحاد الدولي للصحفيين يأتي من خلال تقديم الدعم للعديد من الجهات.. «نحن لا نملك أسلحة» يتابع بلايجر حديثه عن استراتيجية الاتحاد الدولي الذي يتخذ من عاصمة الاتحاد الأوروبي مقراً له، تلك الاستراتيجية قائمة على التدريب والتأهيل والدعم والمساعدة على خلق واقع صحفي صحي. طبعاً هذه الاستراتيجية واجهت العديد من العقبات، أهمها اختيار الشبكات التي يمكن العمل عليها، فضلا عن اختلاف النظرة إلى المستقبل بين الداعم والمدعوم الذي ينظر إلى أي مرحلة على أنها آنية حالية

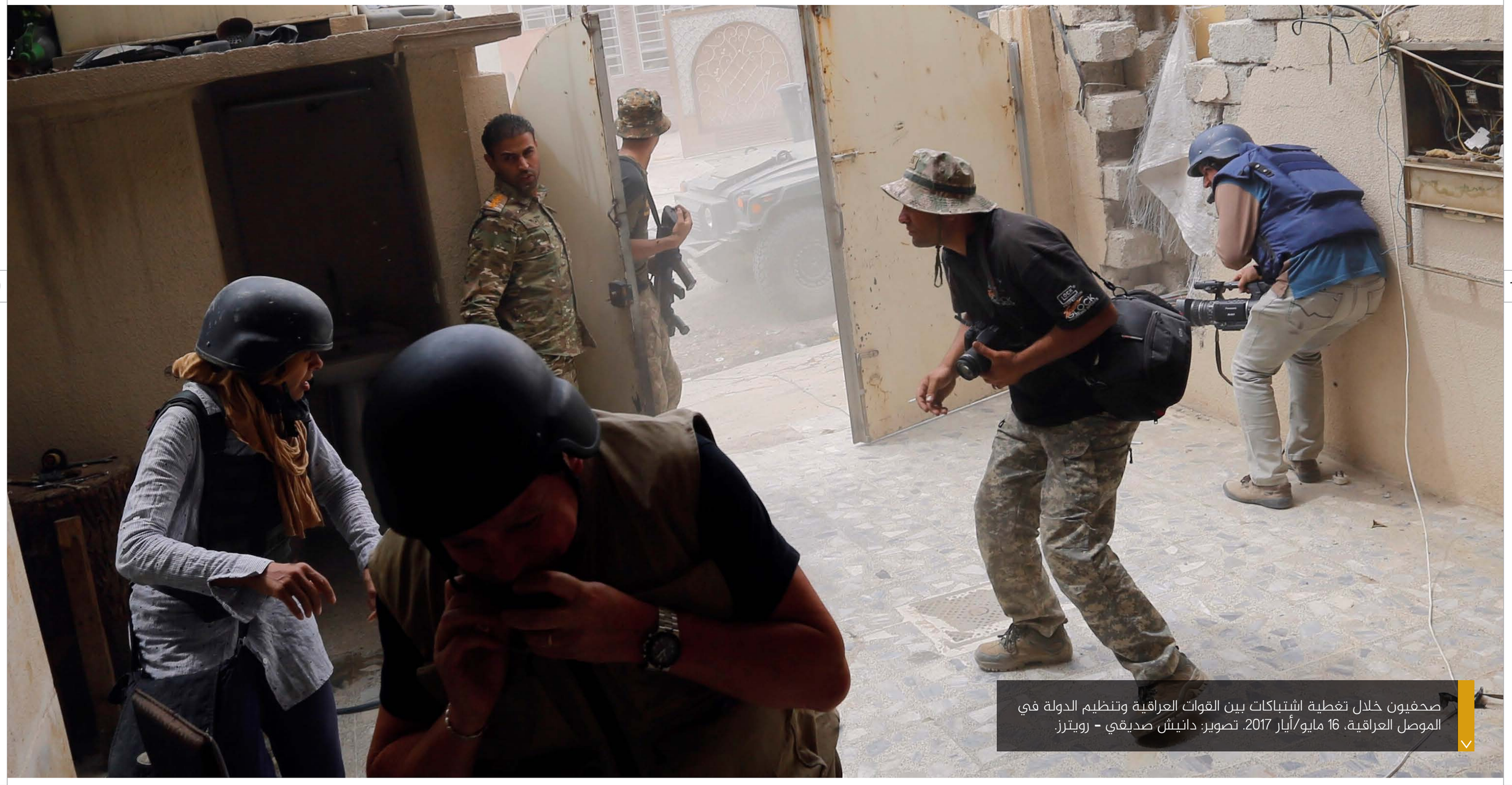

صحفيون خلال تغطية اشتباكات بين القوات العراقية وتنظيم الدولة في الموصل العراقية، 16 مايو/أيار 2017. تصوير: دانيش صديقي - رويترز.

فقط، بينما يعمل الاتحاد على خطط طويلة المدى. من جهة ثانية، تبدأ الصعوبات عندما تنتهي المشاريع ويبدأ الصحفيون بالعمل على آليات جديدة، فيصطدمون بواقع صعب يحكمه الجمود، أو بصورة أخرى يحكمه البحث عن آليات عمل جديدة ضمن سقف الحريات المحدود.

فالمشاريع التي تولد نظراً للحاجة إليها، تؤسس -كما يراها بلايجر- لأرضية صلبة لكنها غير مستدامة بسبب محدوديتها الزمنية، لكنها في المقابل ترسم آفاقاً جديدة قوامها البحث عن فرص تخدم الواقع الصحفي. يعتقد بلايجر هنا أن الصحفيين الذين يؤمنون اليوم بأن الصحافة الحرة هي الباب الوحيد الذي يمكن العمل من خلاله للوصول إلى بيئة طبيعية مليئة بالإبداع، هم القادرون على التعامل بذكاء مع المحاذير التي تفرضها السلطات -أي سلطات- على العمل الصحفي.

ينظم الاتحاد الدولي للصحفيين العديد من الدورات المتنوعة التي يعمل القائمون عليها على تطوير مهارات العاملين في حقل الصحافة. من هذه الدورات مساقات جديدة في السلامة المهنية التي تم اعتمادها بإشراف مدربين دوليين محترفين.. يقول بلايجر إن ضرورات العمل الصحفي اليوم في أماكن الصراع والنزاع وتواجد الصحفيين في مناطق التوتر لنقل الأخبار حتَّم امتلاكهم أساسيات تتعلق بالتصرفات والسلوكيات التي تضعهم في مسافة أمان من الخطر، فالمساقات الجديدة التي تم طرحها تقوم على كيفية تعامل الصحفي مع حالات الاختطاف أو محاولات الاغتيال والتصفية، اختيار مكان الإقامة، التعامل مع الهجمات بالأسلحة

أعضاء من الاتحاد الدولي للصحفيين يتظاهرون أمام سفارة الولايات المتحدة في بروكسل، احتجاجا على تورط القوات الأميركية في مقتل 7 صحفيين، 8 أبريل/نيسان 2004 - رويترز.

المختلفة، بناء الملاجئ المؤقتة والدائمة، التخطيط للمهمات المتنوعة، وغيرها من التفاصيل الخاصة بالتغطيات في أماكن التوتر.. هذه الدورات المهنية نظمها الاتحاد في مصر واليمن ودمشق وغازي عنتاب وبيروت.

البحث عن آلية جديدة

يخوض الاتحاد الدولي للصحفيين إلى جانب بعض المنظمات الأخرى؛ جولات عديدة لاعتماد الإعلان الخاص بمبادئ حرية الإعلام في العالم العربي. وعن هذا يقول بلايجر إن هذه الجهود تُشكِّل في جوهرها عملية المشاورات الإقليمية لتأسيس آلية إقليمية لحرية الإعلام على غرار آليات إقليمية مشابهة في إطار الاتحاد الأفريقي ومنظمة التعاون والأمن الأوروبي ومنظمة الدول الأميركية، هذا بالإضافة إلى الآلية الخاصة بالأمم المتحدة ومؤسساتها المختلفة، حيث يُناقش الإعلان المبدئي عن مبادئ حرية الإعلام، وهي المقترحات التي سيقوم عليها الأساس الذي ستُبنى به الآلية التي تتضمن 16 بنداً من ضمنها سلامة الصحفيين واستقلالية الإعلام العمومي ومناهضة خطاب الكراهية، فمعايير هذا الإعلان هو ما أضافت هذه الآليات لصحفيين في مناطق أخرى مثل أفريقيا وأميركا الشمالية و الجنوبية. وفائدة هذه المبادرة تكمن في خلق مظلة تنظيمية تشريعية جديدة تقوم على محاسبة الدول التي تنتهك حرية الصحافة في العالم العربي. ويتابع الأمين العام للاتحاد الدولي للصحفيين حديثه بالقول: إن إدراك مدى أهمية تعزيز مفهوم الصحافة الحرة والجيدة، سيؤدي بالضرورة إلى خلق آليات تمكِّن وسائل الإعلام من الإسهام في تحقيق سيادة القانون على الصعيدين الوطني والدولي، فوسائل الإعلام -كما يراها بلايجر-

أنتوني بلايجر.

تلعب دوراً محورياً وهاماً في إثارة التوتر أو نزع فتيله وتعزيز الحوارات واحتواء الصراعات.

الصحفي مواطن

يقر بلايجر بوجود الكثير من المصاعب في البلدان التي تشهد اضطرابات، خاصة للصحفيين الذين اضطروا لتغيير أماكن عملهم في بلدان أخرى وخضوعهم لقوانين البلاد الجديدة، وفي هذا الإطار يتواصل الاتحاد مع المنظمات الصحفية في هذه البلدان لإيجاد آلية خاصة للتعامل مع الصحفيين الذين يعانون في فضاءات البلدان الجديدة.

هذا التواصل يقودنا إلى الحديث عن جدلية الصحفي والمواطن الصحفي، فكيف يتعامل الاتحاد مع هذه المسألة؟ ليجيب ضيفنا بأن الصحفي مواطن بالدرجة الأولى، والمواطن الصحفي غير مقبول بالنسبة للاتحاد الدولي للصحفيين، فبإمكانك أن تمتلك حاسوباً في بيتك ولكن لن تكون مبرمجاً، وفي ذات الوقت بإمكانك امتلاك أجهزة غوص حديثة وهذا لا يعني أنَّك غواص.. الصحفي يخضع لمعايير عامة يجب أن تتحقق.

ويتابع ضيفنا «إما أن تكون صحفيا أو لا تكون، فعندما تقوم بعملك المهني وتبحث عن الحقيقة أو المعلومة ضمن إطار الأعمدة التي تقوم عليها الصحافة بمفهومها العملي والمهني، فهذا يعني أنك صحفي».

أنتوني بلايجر خلال مظاهرة بعد أحداث شارلي إيبدو بفرنسا عام 2015.

سيكولوجية النشر في مواقع التواصل الاجتماعي

غيداء أبو خيران

مشاركة ونشر الأخبار والقصص على مواقع التواصل الاجتماعي تفسرهما نظرية كانيمان في أن العقل البشري يتّبع في تفكيره نظاما سريعا يحدث بشكل تلقائي، وآخر بطيئا يحتاج إلى كثير من التركيز.

مذ بدأتُ دراسة علم النفس وأنا أحاول إسقاط النظريات والدراسات والأبحاث التي أدرسها على الكثير من الأمور في حياتي اليومية، وبما أنني أُعتبر فردا في مواقع التواصل الاجتماعي ولديّ حسابات على كل من فيسبوك وتويتر وإنستغرام وغيرها، أجدني كثيرا ما أفكّر في سؤال العقل ودوره والسلوكيات البشرية المختلفة في الطريقة التي يتعامل بها الأفراد مع هذه المواقع.

يغفل الكثيرون ممن يتعاملون مع هذه المواقع أن اللاوعي لديهم والتفكير والعواطف والإدراك، تلعب دورا كبيرا في طريقة استخدامهم لها، بدءا من كتابة منشور أو مشاركته أو الإعجاب بمنشورات الآخرين أو حتى المتابعة بصمت.

كثيرُ من الأبحاث والدراسات استنتجت بعضا من العوامل والأسباب التي تدفع الأفراد للمشاركة بأشكالها المختلفة في هذه المواقع، قد يكون أبرزها ناتجا عن احتياجات نفسية فردية مثل تعزيز الذات والهوية الشخصية وشعور الانتماء والترابط الاجتماعي وخلق محتوى مفيد وفعّال. لكن كيف تلعب طريقة تفكيرنا دورا مهمًا في تعاملنا مع ما نشاهده من أخبار ومنشورات في تلك المواقع؟

يتأثر العقل البشري بكثير من المحفزات الخارجية التي تدفعه لاتخاذ قرار أو تحدد طريقة تعامله مع ما يواجهه في حياته اليومية. ولنفهمَ أكثر كيف تتعامل عقولنا مع تلك المحفّزات التي تجعلنا نشارك وننشر الأخبار والقصص على فيسبوك وغيره من المواقع، قد تكون الاستعانة بكتاب دانيال كانيمان «التفكير.. بسرعة وبطء» خيارا جيدا. أشار كانيمان إلى أن العقل البشري يتّبع في تفكيره نظامين اثنين: أحدهما سريع والآخر بطيء. يتعامل النظام السريع مع الملاحظات اللاواعية البديهية، أي مع المهارات الفطرية أو الأساسية، فيما يختصّ النظام البطيء بالتعامل مع الملاحظات الواعية والمنطقية الناتجة أساسا عن المهارات المُكتسبة من تجاربنا الحياتية. وبينما يحدث النظام السريع بشكل تلقائي، يحتاج النظام البطيء إلى الكثير من الاهتمام والتركيز.

يشتمل العقل البشري على حالتين من الإدراك وفقًا لهذين النظامين المختلفين، أولهما ما سمّاه كانيمان بالسهولة المعرفية، أي «الحالة التي يكون فيها العقل حينما يشعر أن الأمور تسير على ما يرام، لا تهديدات ولا أخبار تستدعي الانتباه وتركيز الجهد تجاهها». وبعبارة أخرى، فإن النظام السريع هو المسؤول والنظام البطيء في وضع الخمول. ولو نظرنا إلى الطريقة التي نستخدم بها مواقع التواصل الاجتماعي لوجدنا الآتي: تصفح سريع للمشاركات والأخبار، وتمرير سريع وبدون تركيز بين المنشورات سواء على الشاشة الكبيرة أو الصغيرة، أي أننا في معظم الوقت نكون في حالة من الارتياح والاسترخاء، حتى إن خضنا نقاشا أو كتبنا تعليقا هنا أو هناك، ننظر إلى الأمر على أنه وضع سهل مريح لا يتطلب الجهد أو التحدي.. الأمر ينطبق على تصفحنا للأخبار الثقافية أو الطبية أو أخبار المشاهير، أكثر مما ينطبق على تصفحنا للأخبار السياسية ربما.

تلعب مجموعة من العوامل والأسباب التي تؤدي إلى السهولة المعرفية دورا في جعلنا نشارك خبرا أم لا، منها وضوح ما نقرأ وسهولة فهمه، تكرار المعلومات التي نتصفحها، مطالعة الأخبار التي تتوافق مع أفكارنا ومعلوماتنا التي بدورها تجعلنا نشعر باليقين حول الأشياء، فالعالم وما يحدث فيه يبدو منطقيا بالنسبة لنا، مما يجعلنا نشعر بالراحة واليُسر ويضعنا في مزاج جيد.

يغفل الكثيرون ممن يتعاملون مع مواقع التواصل الاجتماعي أن اللاوعي لديهم، إضافة للتفكير والعواطف والإدراك، يلعبون دورا كبيرا في طريقة استخدامهم لها - غيتي.

دانيال كانيمان، صاحب كتاب «التفكير: بسرعة وببطء»، تصوير شين غالوب- غيتي.

الأخبار العاجلة والنصوص الواضحة:

يـؤدي هـذا النـوع مـن الأخبـار إلـى السـهولة المعرفيـة وتحفيـز عمـل نظـام التفكيـر السـريع بشـكلٍ جيـد.

لـو جئنـا إلـى المثـال الآتـي وطلـب منـك اختيـار أحـد الخيارين: وُلـد أدولـف هتلـر عـام 1892 | وُلـد أدولـف هتلـر عـام 1887
وفقًـا لنتائـج الدراسـة التـي أجراهـا كانيمـان، فـإن معظـم الأشـخاص يميلـون إلـى اختيـار الجملـة الأولـى أكثـر مـن الثانيـة، بالتأكيـد تسـتطيع اسـتنتاج أن الخـط العريـض والواضـح أثّـر فـي الاختيـار.
وإذا قمنـا بإسـقاط هـذه النتيجـة علـى مشـاركة الأخبـار فـي مواقـع التواصـل الاجتماعـي، فسـنلاحظ أن الأخبـار العاجلـة لهـا تأثيـر مماثـل تمامـا، فيميـل الأشـخاص إلـى مشـاركتها لأنهـا تجـذب اهتمامـا أكبـر مـن الأخبـار العاديـة، خاصـة أنهـا تمتـاز بقصـر جُملهـا ممـا يجعلهـا تبـدو بشـكلٍ أوضـح وأسـهل.

النصوص البسيطة:

غالبـا مـا تكـون الأخبـار المكتوبـة بنصـوص بسـيطة أكثـر سـهولة فـي التحليـل والفهـم وأكثـر عرضـةً للمشـاركة، لأنهـا تعمـل علـى تحفيـز نظـام التفكيـر السـريع فـلا تحتـاج وقتـا أو جهـدا كبيريـن للوقـوف عندهـا والتفكيـر فيمـا إذا كانـت تسـتحق المشـاركة أم لا.

«تأثير التهيئة» وطرح الأسئلة:

فلنفـرض أنـك حدّثـت شـخصا مـا عـن قصص الملـوك والسـلاطين ثـم طلبـت منـه أن يكمـل الحـرف الناقـص فـي الكلمـة التاليـة: -صـر، بالتأكيـد سـيضع حـرف القـاف لتصبـح قصـر. غيـر أنـك لـو حدّثـت شـخصا آخـر عـن قصـص الفراعنـة وحضارتهـم وتاريخهـم وطلبـت منـه أن يكمـل الكلمـة نفسـها، فسـيكملها لتصبـح مصـر، أي أنـك لعبـتَ دورا بالقصـة التـي رويتهـا فـي قـراره النهائـي.

يُعـرف هـذا فـي علـم النفـس بتأثيـر التهيئة (priming effect) أي زيـادة الحساسـية تجـاه مثيـر معيـن وفقًـا لتجربـة سـابقة، فقـد قمـتَ بتحفيـز الشـخصين بطريقـة لاواعيـة وجعلتهمـا يصـلان إلـى قـرار محـدد بنـاءً علـى تجربـة سـابقة، وهـي القصـة التـي رويتهـا.

إذا طبّقنـا هـذا المفهـوم علـى وسـائل التواصـل الاجتماعـي، فهـل يمكـن أن نسـتنتج أن طـرح الأسـئلة يحفّـز التفكيـر كمـا فـي القصـة السـابقة؟

يرتبـط طـرح الأسـئلة غالبـا بمزيـد مـن التعليقـات والنقاشـات أو حتـى مشـاركة الخبـر. فبمجـرد طـرح السـؤال حـول الخبـر المنشـور يبـادر الفـرد إلـى الإجابـة عنـه بتعليـق أو مشـاركة للأسـباب النفسـية التـي ذكرناهـا سـابقا، أي التعريـف بالهويـة الشـخصية وتعزيـز الانتمـاء وخلـق محتـوى قيّـم. فلـو أنـك وضعتَ خبـرا عـن أحـد الأحـزاب السياسـية وألحقتـه بسـؤالٍ للقـارئ مـن قبيـل «هـل تؤيـد مـا قـام بـه الحـزب؟»، فـإن علامـة الاسـتفهام تحفّـزه للتعليـق أو المشـاركة.

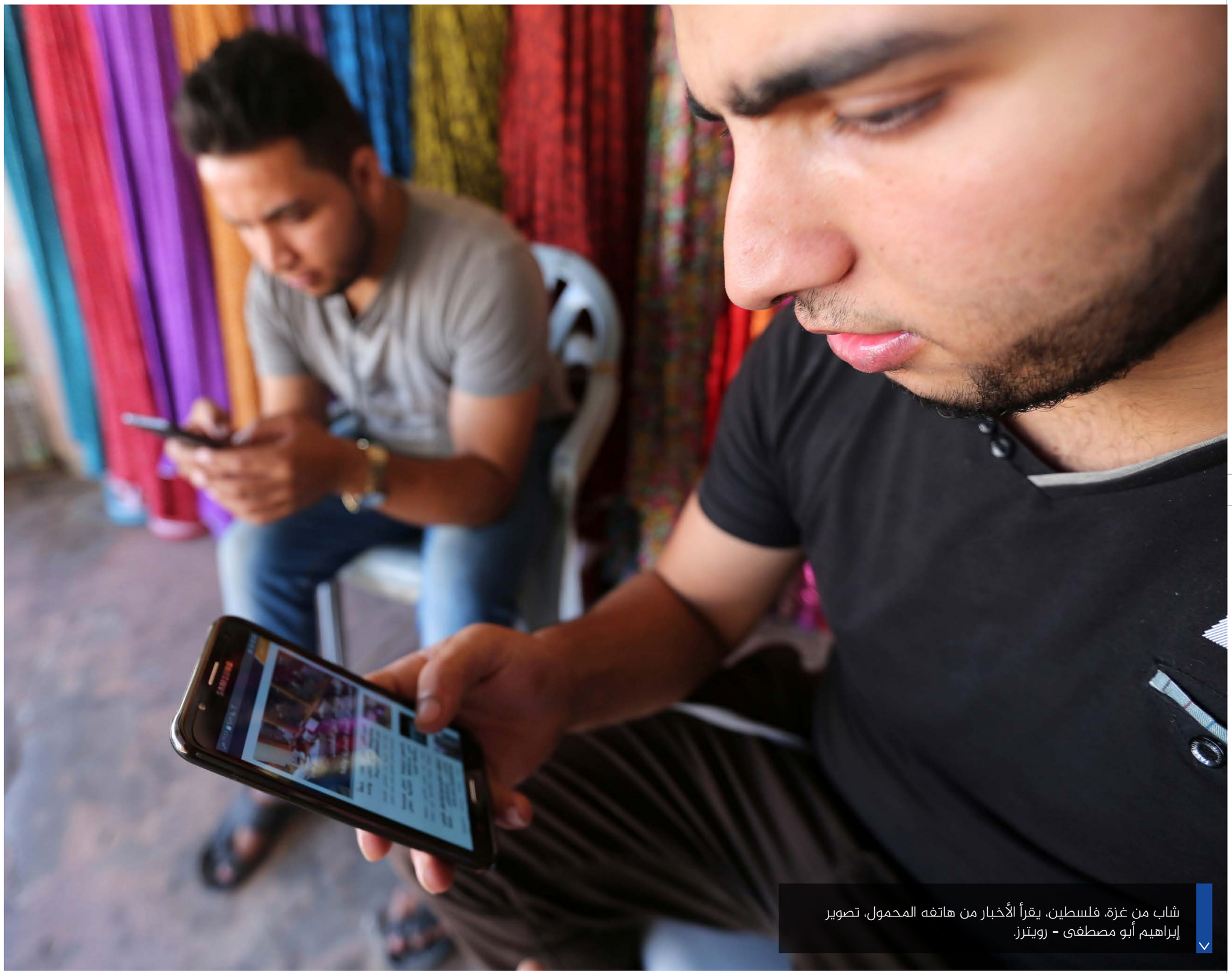

شاب من غزة، فلسطين، يقرأ الأخبار من هاتفه المحمول، تصوير إبراهيم أبو مصطفى - رويترز.

التوتّر المعرفي والنظام البطيء

على النقيض تماما من السهولة المعرفية، يعتمد التوتر المعرفي على النظام البطيء، أي مع الملاحظات الواعية والمنطقية التي يتخذها الأفراد بعناية كبيرة لتجنب أكبر قدر من الأخطاء، لكنها في الوقت نفسه تستغرق وقتًا أطول ومزيدا من الجهد والتركيز.

يعتمد التوتر المعرفي في مواقع التواصل الاجتماعي على العوامل النقيضة التي ذكرناها سابقا، ولو جئنا إلى عالم الفيسبوك فسنجد أن الكثير من مستخدميه يمرّون سريعا على الأخبار المعقدة والمنشورات التي يصعب تحليلها، أي أنهم فضّلوا الاعتماد على نظام التفكير السريع، في حين أن الذين قرروا تحفيز النظام البطيء وبذل بعض الجهد والوقت لقراءة الخبر وتحليله، ومن ثم فهمه وتكوين رأي حياله؛ ربما يكونون ميالين إلى ترك تعليق على الخبر مقابل مشاركته أو الإعجاب به.

في المحصّلة، هناك الكثير من العوامل التي تؤثر على الطريقة التي يتعامل بها الأفراد مع الأخبار على مواقع التواصل الاجتماعي، منها الصور الجميلة أو العبارات البسيطة والخط الكبير وطرح الأسئلة، الأمر الذي يجذب اهتمامهم ويحفّز التفكير اللاواعي لديهم لمشاركتها أو التعليق عليها. هنا نتحدّث عن عناصر الجذب والتأثير وتلازمهما الأزلي.

مباشر من بغداد.. أن تكون القصة

محمد عبدالرحيم

يحكي فيلم «مباشر من بغداد» القصة التي كتبها المنتج روبرت وينر عن ستة أشهر قضاها متنقلا بين شوارع العاصمة العراقية وفندق الرشيد، حاكيا مع فريقه يوميات الحرب والتوتر والخوف والألم التي عاشتها بغداد والكويت.

حين بدأت حرب الخليج الثانية كان روبرت وينر يقنع مديريه في السي أن أن بالذهاب لبغداد لتغطيتها. 28 فبراير/شباط 1991-غيتي.

تبدأ الحرب كما تفعل عادة بكسرِ لهدوء حياة الناس وعاداتِ أيامهم، وتبدأ في فيلم «مباشر من بغداد» (Live from Baghdad) بمشهد استهلالي يخلط صخب قاعة سينما تعرض مشهدا من فيلم "تريمورس" (Tremors) تخرج فيه مخلوقات غريبة من تحت الأرض لتحتل قرية صغيرة بصمت مدينة الكويت الوادعة، إذ زحفت عليها الدبابات وفرق الجيش العراقي ذات خميس دافئ من أيام أغسطس/آب الأولى عام 1990. تختلط الأصوات العالية في الفيلم المعروض، بأصوات القصف وزحف المدرعات على عاصمة الكويت.. يمتزج المشهدان بسينمائية بالغة، فيخرج الناس ذعرا إلى الشوارع مسابقينَ الجنودَ إلى البيوت، لعل بها بقية أمانٍ فرَّ من قاعة السينما على أزيز المدافع والراجمات.

صناعة القصة

كان ذلك عندما بدأت «حرب الخليج الثانية» باحتلال العراق للكويت. وعلى طرفِ الدنيا الآخر، في مقر قناةِ "سي.أن.أن" (CNN) بأتلانتا في الولايات المتحدة، كان المنتج روبرت وينر يقنعُ مديريه بإرساله إلى بغداد لتغطية الحرب الدائرة هناك -كان يرى أن تلكَ المَهَمة ستكون أشبه بالمشي على القمر بالنسبة له- بعدما أرسلت بقية القنوات الأميركية الكبرى "سي.بي.أس" (CBS) و"أي.بي.سي" (ABC) مراسليها إلى العراق. ينجح وينر في إقناع القناة، ويصل فريق السي.أن.أن إلى "مطار صدام حسين" في بغداد يوم 23 أغسطس/آب، بعد ثلاثة أسابيع من دخول القوى العراقية الكويت، لتبدأ بوصوله قصة خبرية ربما تكونُ الأهم في تاريخ السي.أن.أن التي بالكاد مرَّ عقد من الزمن على إنشائها آنذاك.

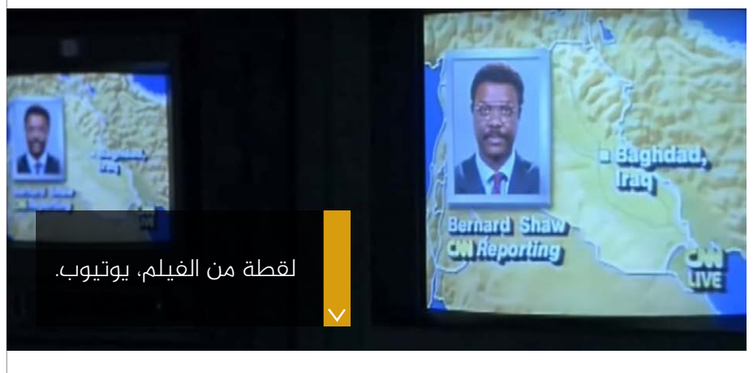

لقطة من الفيلم، يوتيوب.

يحكي فيلم "مباشر من بغداد" القصة التي كتبها المنتج روبرت وينر عن ستة أشهر قضاها متنقلا بين شوارع بغداد وفندق الرشيد، حاكيا مع فريقه يوميات الحرب والتوتر والخوف والألم التي عاشتها بغداد والكويت، عبر عدسة المصور وحروف المنتج. يأخذنا الفيلم خلف شاشات التلفزيون والصور والبيانات المتبادلة عليها بين الحكومة العراقية وحلف «عاصفة الصحراء»، يُدخلنا في تفاصيل العملية الإعلامية التي قفزت بقناة السي.أن.أن من مجرد وسيلة إعلام أميركية متوسطة الحجم والوصول، إلى قناة عالمية لها صوت ينتظر الجميع سماعه، لأنها كانت في ليلة من منتصف يناير/كانون الثاني 1991: القناةَ الأميركية الوحيدة التي تبث مباشرة من بغداد إلى كل العالم أضواءَ السماء وهزات الأرض.

يبدأ فريق السي.أن.أن عمله بتقرير عن الأجانب «الرهائن» الذين كانت الحكومة العراقية تحتفظ بهم تحسبا لأي اشتباك عسكري مع الغرب، ويتدرج عمل الفريق يوما بعد يوم إلى بث قصص مختلفة، تصل بروبرت وينر إلى مقابلة وزير الإعلام العراقي في تلك الحقبة ناجي الحديثي، وطلبِ مقابلة مع صدام حسين.. مقابلة سيفشل في الحصول عليها أول مرة، لكنه يحصل بالمقابل على صداقة مع الحديثي وفرصة لزيارة الكويت والتصوير في ثلاثة مستشفيات، أحدها انتشرت عنه أخبار متعلقة بموت أطفال فيه نتيجة إخراجهم من محاضنهم، فيكونُ روبرت وزملاؤه -بدخولهم ذاك- الفريقَ الصحفي الأميركي الوحيد على الأراضي الكويتية. لكن بعد وصولهم الكويت وتصوير تقريرٍ أول، يكتشفونَ أن تسهيل دخولهم إلى هناك لم يكن من أجل عملهم الصحفي، وإنما ليكونوا أداة

مايكل كايتون من اليسار وبجانبه روبرت وينر. إنغريد فورمانيك وهيلينا كارتر خلال عرض الفيلم بنيويورك. 18 نوفمبر/تشرين الثاني 2002. تصوير إيفا أغوستيني-غيتي.

بروباغندا إعلامية محايدة تبرّئ حكومة العراق من تهمة قتل الأطفال. وتنقل لنا تلك الحادثة جزءا مما يحدث في الحرب، عندما تتلاعب الأنظمة بالمتاح لها من وسائل، لتبلغ أهدافها الدعائية والسياسية، وتوضح لنا أيضا أن الصحافة مهما كانت حذرة ومحترفة، فهي دائما عرضة للفشل والاستغلال، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالحروب التي يجد الصحفي نفسه فيها بين معسكرين متقابلين، فتكون التغطية والتمسك بموقف موضوعي مما يجري أمرا صعبا، إن لم يكن مستحيلا.

بعد عودة فريق السي.أن.أن من الكويت يحصلونَ هذه المرة على مقابلة مع صدام حسين، نُقلت للعالم يوم 19 أكتوبر/تشرين الأول 1990، وأعلنَ فيها صدام رفضه الخروج من الكويت، ضاربا المثال بخروج أميركا من هاواي إذا تعرضت لضغوط من أجل ذلك.

التحول إلى قصة

في «مباشر من بغداد» نرى تعقيدات عمل المراسلين الحربيين، وإكراهات الواقع السياسي والاستخباراتي والدبلوماسي التي تجعل الصحفي يتحول من مجرد ناقل للخبر ومحلل للحدث، إلى جزء من الخبر نفسه وأداة بيد نفسه وبيد غيره لتمرير الرسائل وإيصال الإشارات، بين المتحاربين من جهة، وبين وسائل الإعلام نفسها من جهة أخرى.

نرى في الفيلم طبيعة الصراع النفسي وصعوبة العمل الصحفي عندما يتعلق مباشرة بأرواح الناس وحيواتهم، ونرى أيضا كيف تضيف الحرب إلى أي صحفي يغطيها شيئا آخر غير عمله المهني، طبقة من التعلق بالحدث والاندماج فيه والارتباط العضوي معه، تجعل نجاحه في تغطيته مسألة وجودية له، حتى لو جلبت معها احتمال الموت بين نيران المتحاربين.

مع تقدم «عاصفة الصحراء» واحتدام التصريحات المتبادلة، وإعلان جورج بوش الأب من السعودية موعدًا للتدخل العسكري الأميركي إذا لم يسحب العراق جيشه من الكويت، ومع اقتراب ساعة الصفر لذلك التدخل، واشتداد التوتر بين جميع الأطراف، وخلو شوارع بغداد من مارّتها يوم 13 يناير/كانون الثاني 1991، ومغادرة جميع الفرق الصحفية للعراق إلا فريق السي.أن.أن، يلجأ صدام حسين إلى ذلك الفريق لإجراء مقابلة ثانية يحاول فيها كسب بعض الوقت، محددا موعدها بالتزامن مع انتهاء المهلة الأميركية. في خضم تلك التداعيات، يجد وينر وزملاؤه أنفسهم عالقين في بغداد، بعضهم يريد الرحيل ليعود إلى أهله، وبعضهم يريد البقاء ليغطي ما يُتوقع أن يحدث، لكن مرةً أخرى تبدأ الحرب فجأة، هذه المرة على أرض العراق. في فجر 17 يناير/كانون الثاني 1991، تبدأ طائرات "أف-117" المُتخفية عن مراصد الرادارات بقصفها لبغداد، فيرد الجيش العراقي بإضاءة سماء العاصمة بآلافٍ من القذائف المضادة للطيران، عندها تتحول نافذةُ جناح فريق السي.أن.أن في الطابق التاسع من «فندق الرشيد» إلى «شاشةٍ» للعالم كله، يسمع عبرها التفاصيل المباشرة لما يحدث، حيث يتبادل ثلاثة من مراسلي القناة التعليقَ الصوتي على القصف من السماء للأرض ومن الأرض للسماء، وتستمر تغطيتهم حتى الصباح، حيث ينكشف النهار عن دمار المباني وخراب المنازل والدخان الذي يملأ الأجواء.

في تلك الليلة بالذات أثبتت السي.أن.أن جدارتها بالسبق والصبر الصحفيَيْن، وحقق وينر "مشيتَه على المريخ" التي كانَ يحلم بها حين تمكّن من إقناع مديريه في أتلانتا باختياره لتغطية الحرب. ما حدث في تلك الليلة ذاتِ "العتمة الباهرة"، أن السي.أن.أن صنعت الخبر، وكانت هي الخبر.

بين السينما والصحافة والتأريخ

من الناحية السينمائية، يعتمد الفيلم كثيرا على الموسيقى التصويرية لإحداث التأثير الدرامي المناسب في مشاهده المختلفة، وتكون تلك الموسيقى غالبا ملازمة للتحولات السردية التي ترافق التأثر النفسي للممثلين بما يجري من حولهم أثناء تطور القصة وتعقدها، وما تحركه في نفس كل واحد منهم. وينقل أيضا بعض الصور الواقعية لحياة البغداديين في بداية التسعينيات، ويصور جزءا من طبيعة النظام السياسي القائم حينها، وكيف كان يتعامل مع الأشخاص والأحداث. كما ينقل صورا ومقاطع وحقائق وثائقية عن الحرب في الكويت، وما كانت تفعله، ليس بالكويتيين فقط، بل بالعراقيين الذين وجدوا أنفسهم بعد أشهر من بدئها، تحت قصف 34 دولة تحالفت على إنهاء احتلال الكويت.

أنتجَ فيلم «مباشر من بغداد» بين مناطق في المغرب وأستوديوهات هوليود ومواقع تصويرية في أميركا، وعرضَ يوم 17 ديسمبر/كانون الأول 2002، بعد 11 عاما على نجاح «عاصفة الصحراء» في تحرير الكويت.. عُرض الفيلم وصدام حسين لا يزال رئيسا للعراق، بينما تحول الحديثي من وزارة الإعلام إلى وزارة الخارجية العراقية، عاما قبل غزو الولايات المتحدة بقيادة جورج بوش الابن للعراق بحجة امتلاك نظام صدام أسلحة دمار شامل. لم يركز الفيلم كثيرا على تفاصيل «حرب الخليج الثانية» في الكويت، رغم اعتماده على صورها الحقيقية لسرد قصته، على طريقة الأفلام التلفزيونية، وإنما ركز على الجانب الصحفي من تلك الحرب، جانب نقلها وتوثيقها وبثها للعالم، جانب الإعلام فيها، وكيف كانَ تأثير الصحافة على تلك الحرب، وتأثرها بها. لاقَى «مباشر من بغداد» ردودَ أفعالٍ نقدية إيجابية، وبلغ تصنيفه 7,4 على موقع "آي. أم.دي.بي" (iMDB)، والفيلم من بطولة مايكل كيتون وهيلينا بونام كارتر.

صحفيون يطرحون أسئلتهم على ريتشارد تشيني، سكرتير الدفاع في مؤتمر عقدته الولايات المتحدة مع السعودية خلال عملية عاصفة الصحراء، السعودية، 1 فبراير/شباط 1991-غيتي.

وجوه أفريقيا المتعددة تستقطب المراسلين الأجانب

خلود الحدق

تُعرَف أفريقيا بأوبئتها ومجاعاتها، بيد أن هناك وجوها أخرى وتنوعات ثقافية تجذب المراسلين الأجانب لتغطيتها. ورغم جهودهم الحثيثة، يعتقد البعض أن الأقدر على نقل الحقيقة هم الصحفيون الأفارقة أنفسهم.

تحوز القارة السوداء -أفريقيا- على اهتمام العديد من المنابر الصحفية في أوروبا والأميركيتين، على اعتبار أنها تضم العديد من القضايا والحالات الإنسانية التي تسعى الصحافة العالمية لتسليط الضوء عليها عبر مراسلين يتوجهون إلى أفريقيا من بلاد مختلفة .

تضع الصحافة والإعلام القارة الأفريقية في صورة نمطية تتمحور في المجاعات والأوبئة والفقر والتخلف، إلا أن العديد من الصحفيين الجدد وبالتعاون مع منابر إعلامية كثيرة في أوروبا والأميركيتين، يتوجهون بأنظارهم نحو أفريقيا لكسر الصورة النمطية عنها والغوص في أسرارها ونفض الغبار عن خفايا هذه القارة.

جوردي وكريستينا بريديكو زوجان وصحفيان إسبانيان قدما إلى أفريقيا بعد رحلة حول العالم مرًّا خلالها بروسيا وإيران وأذربيجان لرصد وتغطية مواضيع حول ثقافات الشعوب المختلفة، لكنهما في نهاية

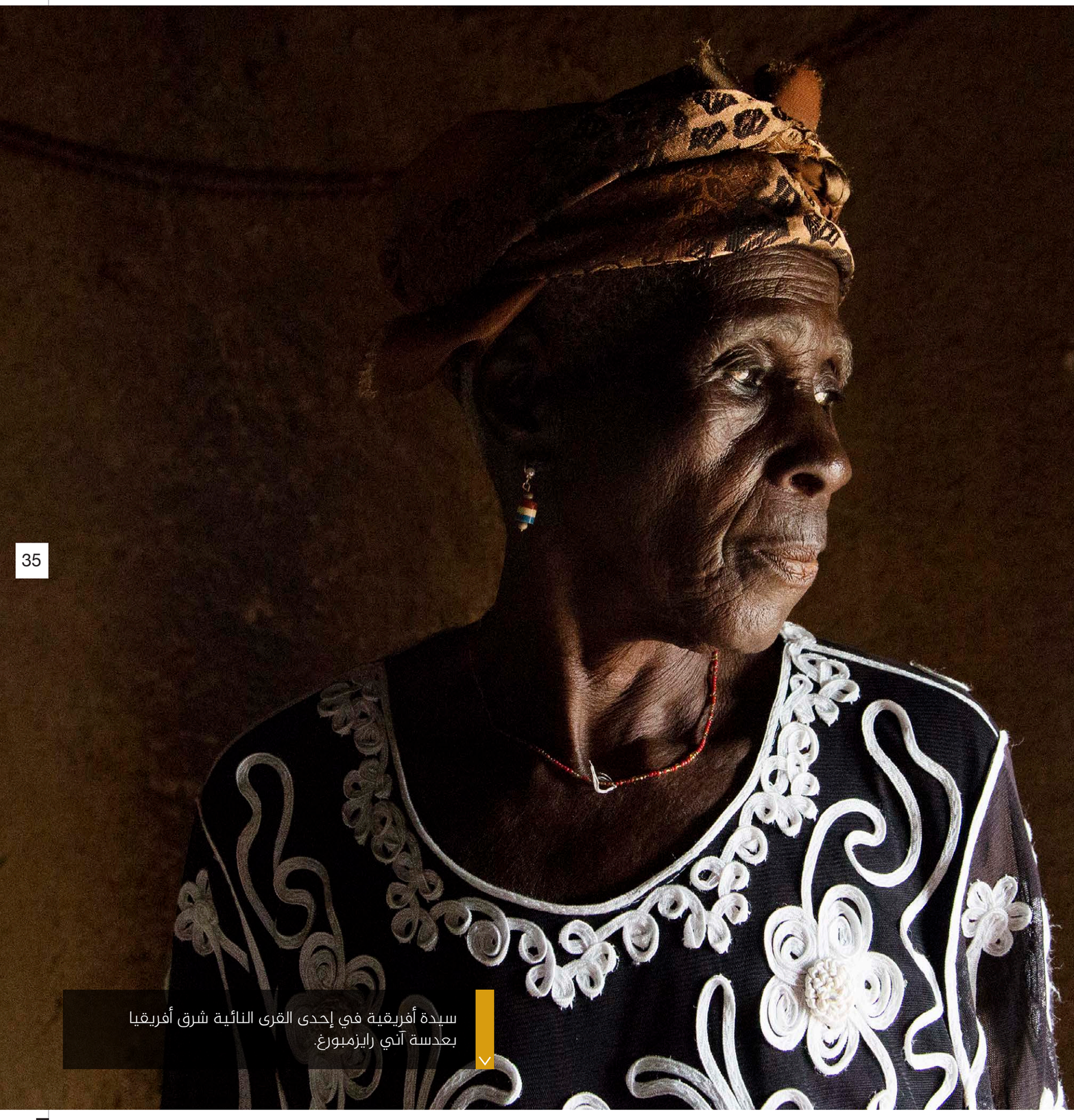

سيدة أفريقية في إحدى القرى النائية شرق أفريقيا بعدسة آني رايزمبورغ.

الصحفيان الإسبانيان جوردي وكرستينا بريديكو أثناء ممارسة عملهما الصحفي في أفريقيا.

قررا أن يحطا رحالهما في أفريقيا.. يقول جوردي «بعد أن تخرجنا من معهد الصحافة في فنلندا، قررنا أن نذهب في جولة حول العالم، لكن بعد ذلك كان لا بد لنا أن نستقر في مكان نستطيع من خلال تواجدنا فيه الحصول على تحقيقات وقصص غريبة تشد القارئ؛ فالصحفي الذي يسعى للتميز عليه المغامرة.. هناك من يذهب إلى أماكن الحروب والصراعات مثل سوريا والعراق، لكننا قررنا الاستقرار في أفريقيا حيث إن العديد من المنابر الصحفية تهتم بها مؤخرا لتصحيح صورتها عند القارئ ومعالجة مشكلاتها ودعمها».

لا يخفى على أحد أن الدول الأفريقية هي دول نامية ينتشر فيها الفقر والبطالة والأمراض، إضافة إلى غلاء المعيشة ومتطلبات الحياة فيها.. كل هذه العوامل قد تعترض طريق من يفكر في العيش فيها. تقول كريستينا إن «قرار العيش في أفريقيا لم يكن سهلا، غير أننا لا نعرف أحدا هنا، وعلينا الاعتماد على أنفسنا في كل شيء..

استغرقنا وقتا للتعرف إلى طبيعة العيش وطريقة التعامل مع الناس لممارسة العمل الصحفي، لكن برأيي لا بد من التضحية، فهي في النهاية تجربة متعبة ككل تجارب العمل الصحفي».

أما ستيسي كنوت -وهي صحفية نيوزيلندية ومراسلة وكالة أنباء فرنسية- فتعمل في أفريقيا منذ سنوات، وقد قدمت إليها بعد أن تعرفت إلى شاب أفريقي وارتبطت به واصطحبها إلى أفريقيا فقررت الاستقرار فيها والعمل مراسلة لعدة منابر إعلامية، إضافة إلى موقعها الخاص على شبكة الإنترنت. تقول ستيسي «لا أنكر صعوبة العيش والعمل في أفريقيا، لكنها فعلا أرض خصبة للكثير من الخفايا والقصص الغريبة، وينبع ذلك من تعددها القبلي والإثني وتعدد اللغات فيها وتعدد الوجوه أيضا.. فنحن نشاهد التطور والرقي والعلم ووجها آخر من الفقر والتخلف والجهل يجتمعون في مكان واحد، لكن بأشكال مختلفة».

لكن آني رايزمبورغ -المصورة الصحفية الأميركية- تعبر عن اهتمامها الشخصي بأفريقيا حيث تعتبرها مكانا يحتاج إلى تسليط الضوء عليه بدقة، خاصة أنه يخضع للعديد من التغيرات من الناحية السياسية والإنسانية، كما يعاني دائما من الصراعات والخلافات التي تحب أن ترصدها بعدستها لتتمكن من تصميم مشروعها الفني والصحفي الخاص، وتضيف «أتيت إلى غرب أفريقيا في رحلة مع الجامعة،

حينها استحوذت أفريقيا على إعجابي.. مساحات شاسعة خضراء، ثروات باطنية، شركات عملاقة رأسمالية مسيطرة، فقر وصراعات وأوبئة.. كل ذلك جعلني أفكر مليا فيها، لذلك قررت العودة إليها، وفعلا عدت إليها عام 2016 لتغطية الانتخابات الرئاسية ومطالب الشعب واحتجاجاته في غانا، وأخطط للعودة في العام الحالي لأكمل مشروعي الفوتغرافي لمكان آخر في أفريقيا، ربما يكون مالي».

حرية الصحافة في أفريقيا

تحتل القارة الأفريقية المرتبة الثالثة في حرية الصحافة بعد الأميركيتين والاتحاد الأوروبي في تصنيف منظمة «مراسلون بلا حدود» لعام 2016، ومع هذا فبعض بلدانها يعاني من اضطهاد الصحفيين ويحتل مراتب متأخرة في حرية الصحافة، بينما تتعامل مع المراسلين الأجانب الوافدين إليها بحذر أكثر من الصحفيين المحليين.

تقول آني إنها لم تواجه العديد من المصاعب في عملها الصحفي في أفريقيا مقارنة بعملها في الولايات المتحدة، لكنها تؤكد أن العمل الصحفي يواجه صعوبات في أي مكان؛ فالناس في أفريقيا يتجاوبون بالحديث مع شخص غريب، ولكن الحكومات ربما تحاول إخفاء حقائق معينة عن الصحافة لتظهر بأجمل صورة.. «اعتدنا على تفنيد ما يقال لنا من الجهات الرسمية عن طريق اطلاعنا الميداني ومراقبة القضية عن كثب، فعندما أرى نسبة مرتفعة من العوز والمجاعات في أفريقيا لا أستطيع أن آخذ تصاريح المسؤولين بعين الاعتبار إذ يحيلون ظاهرة المجاعات إلى قلة الموارد والثروات والاستثمار الخارجي، مع أن الواقع الذي أراه يقول عكس ذلك تماما».

يحترم الأفارقة بشكل عام الصحفي الغربي ويتعاونون معه، ويرى جوردي بريديكو ذلك من خلال تجربته، بل ويضيف أن هناك سلبيات وإيجابيات لكل مكان، ويعتبر أن بشرته البيضاء تساعده في بعض الأحيان على الوصول إلى المعلومات التي يرغب في الحصول عليها، وذلك إما لأجل المال عند الناس الفقراء أو بسبب طبيعة الناس الودودة. أما بالنسبة للحكومات فيقول «الحصول على المعلومات من المصادر الرسمية أمر صعب في أي مكان، وهو أكثر صعوبة في أفريقيا بسبب حذر الحكومات إزاء أي تصريح ربما يدين حكومة البلد في نظر الرأي العام العالمي».

أن تكون صحفيا في أفريقيا

«ليس سهلا أن تكون صحفيا في أفريقيا» تعلق ستيسي كنوت مستذكرة الصعوبات التي واجهتها أثناء عملها الصحفي في القارة السمراء، وتقول «ربما يكون هناك إيجابيات لكوني صحفية أجنبية تعمل هنا، لكن هذا لا ينفي المتاعب والمخاطر التي قد نتعرض لها، خاصة أثناء تغطية بعض الجرائم أو الدخول إلى المحاكم.. أذكر مرة أني تعرضت للطرد خارج المحكمة لأنني أردت عمل تقرير عن صدور حكم بحق أحدهم، ومنعنا من التصوير وكدنا نفقد معداتنا وكدنا نتعرّض للسجن».

أما آني رايزمبورغ فقد واجهت مخاطر من نوع آخر بسبب شغفها بتصوير العادات والتقاليد الغريبة والطقوس التي يمارسها الأفارقة.. تروي لنا عندما اكتشفت أن هناك قبيلة في شمال غانا تحتفل بما تسميه «مهرجان النار»، إذ تبدأ السنة عند هذه القبيلة في ذلك اليوم حسب تقويمها المحلي، فيحتشد الأهالي في مكان ما ويضرمون النيران ويرقصون حولها، مما أدى إلى تعرض عدة أشخاص للإصابة بالنيران المشتعلة في كل مكان.. «كان طقسا غريبا حقا.. نيران عملاقة تحيط بنا من كل جهة، ويمكن أن أتعرض للأذى في أي لحظة.. اقتحمتُ الجموع وبدأت ألتقط الصور، وعندما أردنا المغادرة وجدنا الطرقات مقطوعة إلى القرية التي أردنا المبيت فيها، فمشينا مسافة طويلة مع خوفنا من التعرض لقطاع طرق أو للأفاعي.. كانت مغامرة مخيفة وخطرة، لكنني استمتعت بها حقا».

مستقبل أفريقيا في الصحافة العالمية

أفريقيا، القارة الواسعة ذات الكثافة السكانية الضخمة التي تنتشر في بلدان كثيرة وقبائل متنوعة ومختلفة من حيث اللغات والعادات والتقاليد والمعتقدات، فهل تكفي مبادرات وسائل الإعلام الغربية والمنابر الصحفية لتغطية الحياة فيها؟

تجيب كريستينا بريديكو عن سؤالنا هذا بتأكيدها أن الصحفيين المتواجدين في أفريقيا حاليا والشغوفين بالعمل لأجلها؛ تقع على عاتقهم مسؤولية مهنية كبيرة، فهم مسؤولون عن العمل بصدق وجد لأجل إنصاف هذه القارة وتسليط الضوء على وجهها الآخر، والبحث في أسباب الفقر والبطالة فيها رغم غناها بالموارد الطبيعية والثروات الباطنية والمساحات الخضراء والأماكن السياحية.. «الناس حول العالم يظنون أن أفريقيا مكان المجاعات والأوبئة فقط، لكن معظمهم لا يعلم أنه في الآونة الأخيرة جاهدت عدة بلدان لأجل العلم ومحاربة الجهل مما أثمر مبرمجين وفنانين وأطباء.. وما زالت الأمور قيد التطور، لكنها تحتاج إلى تكاتف أكبر على الصعيد العالمي».

أما جوردي فيظن أنه لن يكون هناك مستقبل للصحافة في أفريقيا إلا عن طريق تدريب صحفيين أفارقة وإفادتهم ودعمهم وتطوير مهاراتهم الصحفية، لأنهم الأقدر على الغوص في خفايا مجتمعاتهم ومعالجة قضاياهم وعرض حقيقة قارتهم أمام العالم أجمع».

مهرجان النار احتفالا ببداية العام حسب التقويم المحلي للقبيلة في شمال غانا بأفريقيا.

الصحافة الفلسطينية في العهد العثماني

مهند صلاحات

بلغ عدد المطبوعات التي صدرت في فلسطين خلال العهد العثماني وحتى العام1918 : أربعين مطبوعة على وجه التقريب، بينها ثلاثون جريدة، بحسب يوسف خوري.

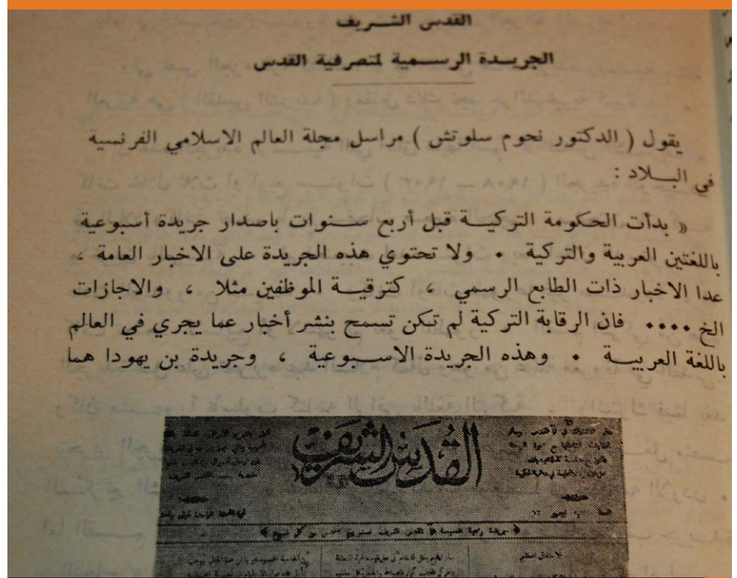

صورة من كتاب يعقوب يهوشع، تاريخ الصحافة العربية في فلسطين في العهد العثماني، لصحيفة القدس الشريف، أول الصحف العثمانية التي صدرت بالعربية في فلسطين سنة 1876.

عرفت فلسطين الصحافة متأخرةً مقارنة بجاراتها من ولايات سوريا العثمانية في حلب وبيروت، وكذلك المدن المصرية التي كانت رائدة بفعل المطبعة التي جلبها نابليون بونابرت. فقد ظهرت الصحافة في ولاية القدس نتيجةً لتحولات سياسية طرأت في الأستانة وأدت إلى صدور أول صحيفة رسمية عثمانية بالعربية والتركية مع تولي السلطان عبد الحميد مقاليد الحكم عام 1876، بعد أن كانت السلطات العثمانية قد أجهضت -لسنوات سبقت- العديد من الصحف العربية المستقلة التي كانت تصدر في الأستانة أو بيروت أو حلب، وعطلت لاحقاً محاولات كثيرة لإصدار صحف عربية مستقلة قبل العام 1908.

شُح المصادر

لا بد من الإشارة بداية إلى أن عملية البحث في الصحافة بفلسطين في تلك الحقبة تبدو مسألة غايةً في الصعوبة، لجهة الوصول إلى الأرشيف الذي يتواجد معظمه في الأرشيفات الإسرائيلية ويتوزع بعض منه بين مقتني الأرشيف وبعض المكتبات العامة في الضفة الغربية، بينما الجزء الأكبر منه فقد نتيجة كارثة نكبة فلسطين، وهو ما واجهته شخصياً ابتداءً من العام 2008 حين بدأت العمل على بحث لفيلم وثائقي عن تاريخ الصحافة في فلسطين وتوقف إنتاجه بعد إنجاز جزء من التصوير بعدما اضطررت لمغادرة فلسطين قسراً بعد عامين.

كما أن المكتبة العربية تكاد تخلو من أي كتاب خاص تحليلي عن صحافة تلك المرحلة، باستثناء كتب قليلة مثل «تاريخ الصحافة العربية في فلسطين» (1967) لأحمد خليل العقاد، و«تاريخ الصحافة العربية في فلسطين» (1976) ليوسف ق. خوري. أما أهم تلك الكتب فهو كتاب سلسلة «تاريخ الصحافة في فلسطين» ليعقوب يهوشع، الذي صدرت أجزاؤه في فترات متباعدة، أولها إصدار دار المعارف الإسرائيلية في القدس عام 1974، ولا يوجد في المكتبات العربية بسبب جهة إصداره. وأحدث تلك المصادر «تاريخ الصحافة الفلسطينية ج1» لمحمد سليمان من إصدار الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين (1987)، الذي يشير في مقدمة الكتاب أنه بصدد إصدار أجزاء لاحقة لم أجدها في المكتبات ولا أعرف إن صدرت أم لا.

النهضة الفكرية

بدأت ملامح لحركات وطنية وقومية داخل الإمبراطورية العثمانية بالتبلور في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فظهرت أحزاب وتيارات ليبرالية تركية وعربية. وبدأ المثقفون العرب السعي لإيجاد منابر لرفع صوت مطالبهم

النسخة التركية من صحيفة القدس الشريف، أول الصحف العثمانية التي صدرت بالعربية في فلسطين سنة 1876، عن كتاب يعقوب يهوشع.

صحيفة فلسطين التي أصدرها عيسى داود العيسى ويوسف العيسى سنة 1911 في يافا.

جريدة القدس التي أصدرها جورجي حبيب حنانيا سنة 1908، وكتب فيها علي الريماوي وخليل السكاكيني، وكانت موالية للحكومة العثمانية، تصدر مرتين أسبوعياً. كتاب يعقوب يهوشع.

بالاستقلال الوطني، فظهرت الجمعيات السرية مصاحبة للنمو الاقتصادي والاجتماعي، وتشكّلت الطبقة الرأسمالية الوطنية على حساب الإقطاع العثماني. كما تنامت الطبقة الوسطى وتشكلت البرجوازية التجارية، الأمر الذي هيأ مناخاً مناسباً لظهور صحافة وطنية مستقلة مصاحبة لهذه التطورات.

كان محمد علي باشا -والي مصر- قد أصدر صحيفة «الوقائع» المصرية عام 1828 بالعربية والتركية، لتكون أول صحيفة عربية، وكانت تصل نسخ منها إلى بلاد الشام. وكما يقول الفايكونت فيليب دي طرازي في كتابه «تاريخ الصحافة العربية»، فإن هذه الصحيفة ربما نبهت الكثيرين ممن اطلعوا عليها إلى أهمية وجود صحافة سورية ظهرت لاحقاً في بيروت عام 1851 عندما أصدر المراسلون الأميركيون مجلة «مجموعة الفوائد» باللغة العربية وطبعت في مطابعهم.

قوانين الرقابة العثمانية

يشير محمد سليمان في كتابه «تاريخ الصحافة الفلسطينية» (1987) إلى أن أول صحيفة قومية صدرت في الولايات السورية هي مجلة «أعمال الجمعية السورية» التي أصدرها مؤسس الجمعية السورية الشيخ ناصيف اليازجي لنشر الفنون والعلوم. ولعل صدور هذه الصحيفة كان فاتحة لصدور عدة صحف عربية تأسس بعضها في الأستانة عاصمة الخلافة، لكن انتشار الصحف نبه السلطات العثمانية إلى المتاعب التي قد تسببها الصحافة العربية المستقلة، فأصدر السلطان عام 1857 لائحة قوانين تحد من حريتها.. ورغم تلك القوانين ظلت الصحف تصدر في الولايات السورية.

وفي أغسطس/آب 1865 أصدر السلطان عبد العزيز لائحة قوانين تعسفية حرمت الصحافة من هامش الحرية النسبي، وأعلن عن تأسيس مكتب للصحافة مهمته مراقبة تنفيذ القانون والتقيد بنصوصه. ونتيجة لذلك التضييق، تراجعت الصحافة العلنية لحساب الصحافة السرية التي كانت تصدر على شكل منشورات سياسية ثقافية تنتقد الحكومة وتهاجم أصحاب السلطة والنفوذ.

وكما يذكر محمد سليمان أيضاً فإن الذعر أصاب الجماهير العربية عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم عام 1876 لما عرف عنه من استبداد، فحاول أن يطمئن المتخوفين منه بإصدار الدستور الشهير عام 1876، الذي اعترف بالحرية الصحفية وبأن المطبوعات حرة ضمن دائرة القانون. ولتأكيد اهتمامه بالصحافة، أصدر تعليماته إلى الحكام بأن يباشروا بإصدار صحف في الولايات التي لا توجد فيها جرائد حكومية.

جريدة النفير التي أنشأها إبراهيم زكّا في الإسكندرية عام 1902 باسم النفير العثماني، عن كتاب يعقوب يهوشع.

الصحافة العثمانية في فلسطين

وفي هذا السياق شهدت فلسطين ميلاد أول صحيفة عثمانية «القدس الشريف» بالعربية والتركية عام 1876، كما صدرت بعدها صحيفة «الغزال» باللغة العربية، وهي أيضاً صحيفة رسمية كان يحررها علي الريماوي، وهو نفسه الذي كان يحرر "القدس الشريف" باللغة العربية، بينما يحرر نسختها التركية "قدس شريف" عبد السلام كمال، وكانت تنشر أخباراً رسمية وفرمانات، وصدرت بشكل غير منتظم. كما عاودت متصرفية القدس التي كانت تشمل القدس ويافا واللد والرملة والخليل وغزة والنقب، إصدار جريدة رسمية أسمتها «القدس الشريف» عام 1903، وكانت رسمية كسابقتها أو امتدادا لها.

وينقل محمد سليمان عن مجلة «العالم الإسلامي» الفرنسية وصفها تلك المرحلة بالقول: «إن الحكومة التركية بدأت قبل أربع سنوات بإصدار جريدة أسبوعية باللغتين العربية والتركية، ولا تحتوي هذه الجريدة على الأخبار العامة، عدا الأخبار ذات الطابع الرسمي كترقية الموظفين وإجازاتهم. كما أن الرقابة التركية لم تكن تسمح بنشر أخبار عما يجري في العالم باللغة العربية. وهذه الجريدة الأسبوعية وجريدة «بن يهوذا» هما الجريدتان الوحيدتان في البلاد، وهناك نية لإصدار جريدتين أخريين، واحدة بالعبرية والأخرى

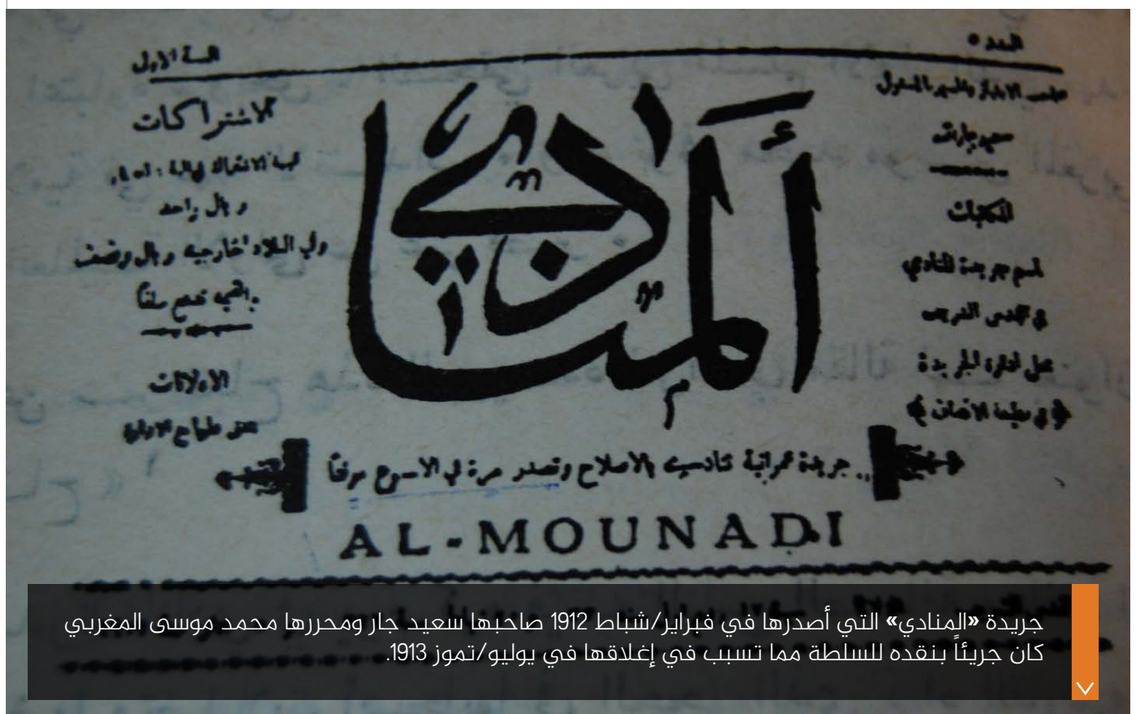

جريدة «المنادي» التي أصدرها في فبراير/شباط 1912 صاحبها سعيد جار ومحررها محمد موسى المغربي كان جريئاً بنقده للسلطة مما تسبب في إغلاقها في يوليو/تموز 1913.

بالعربية. فبعد سبع سنوات من الانتظار وطلبين ودفع مبلغ 200 نابليون كرشوة، سمحت السلطات التركية لجورج حبيب حنانيا بأن يصدر مرتين في الأسبوع جريدته المسماة «القدس».

الصحافة الفلسطينية المستقلة

مع تنامي الأحزاب الليبرالية داخل الدولة العثمانية مثل «تركيا الفتاة» و«جمعية الاتحاد والترقي» اللتين امتد نفوذهما في الدولة، وفشل السلطان عبد الحميد في مقاومة هذه الجمعيات، خرجت الأمور عن نطاق سيطرته عندما سيطر الاتحاديون على معظم مقاعد المجالس النيابية وفرضوا عليه إعلان دستور جديد للبلاد في يوليو/تموز 1908. ويقول محمد سليمان «إن إعلان الدستور العثماني في يوليو/تموز 1908 وفّر حالة الاطمئنان التي عاشتها شريحة المثقفين.. والآمال التي أخذوا يعولون عليها على وصول حزب تركيا الفتاة إلى السلطة، أسهمت بشكل واضح في الإلحاح على طلب رخص إصدار الصحف.

وقد دفع الواقع الجديد الكثيرين من أولئك الذين كانوا قد تقدموا بطلبات للحصول على تراخيص صحف في العهد السابق ورُفضت أو أهملت، إلى تجديد تقديم طلباتهم أو الإلحاح في المراجعة بشأن تلك الطلبات ومعرفة مصيرها أو تأكيدها، وذلك لأن الاستبداد قد رفع، وأصبح من حق كل إنسان الشعور بأن له دوراً في خدمة البلاد. ولهذا نرى أنه بينما لم يصدر عام 1907 سوى صحيفة واحدة هي مجلة «الترقي» التي كان يحررها عادل جبر وتبحث في المواضيع الأدبية والاجتماعية، ففي عام 1908 وبعد مضي ثلاثة أشهر على إعلان الدستور، صدر في فلسطين التاريخية 15 صحيفة خلال الفترة من سبتمبر/أيلول وحتى 30 ديسمبر/كانون الأول من ذات العام.

الصحف الفلسطينية الأولى

نتيجة لهذا الانقلاب السياسي الذي استلزم دعاية سياسية مرافقة، تم السماح بترخيص العديد من الصحف الخاصة، حيث أصدر جورجي حبيب حنانيا العدد الأول من جريدة "القدس" في سبتمبر/أيلول 1908، وكتب فيها علي الريماوي وخليل السكاكيني، وكانت موالية للحكومة العثمانية، تصدر مرتين أسبوعياً.

وبحسب يعقوب يهوشع فإن جورجي حنانياً كان من أوائل من امتلكوا مطابع بأحرف عربية، بقيت مخفية عن السلطات العثمانية لعدة سنوات في بيته، وتقدم بطلبات ترخيص حتى حصل عليه عام 1906، فاستورد مطبعة تعمل على النفط تحضيرا لإصدار صحيفته التي استمر في تقديم الطلبات لترخيصها منذ العام 1899، حتى حصوله عليها في النصف الثاني من العام 1908. يؤرخ البعض لكون صحيفة «النفير العثماني" التي أنشأها إبراهيم زكّا في الإسكندرية عام 1902 هي أقدم الصحف الفلسطينية العربية، لأنها كانت أول جريدة يصدرها فلسطيني باسمه، ثم انتقلت بعد ذلك إلى يافا وصدرت لعام واحد، ثم انتقلت إلى القدس عام 1908 ولاحقاً إلى حيفا عام 1913 وصدرت باسم «النفير»، وكانت أدبية عمرانية يومية. وبحسب يعقوب يهوشع أيضاً، فقد كان معظم المشتركين والمعلنين بها من اليهود، وكان صاحبها يتلقى المعونات من القنصلية الروسية في القدس مقابل تأييده للاستيطان اليهودي في فلسطين، فأطلق الناس على جريدته اسم «الجريدة المأجورة».

شيخ الصحافة الفلسطينية

يذهب البعض إلى أن صحيفة "الكرمل" هي أول صحيفة سياسية فلسطينية، وقد صدرت عام 1908 كأسبوعية في حيفا بمبادرة من الصحفي نجيب نصّار، وتبحث في الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أنه ليس هناك تاريخ واضح لصدورها. مع هذا، يشير عددها الخامس عشر إلى صدوره يوم 27 مارس/آذار

1909، وقد توقفت عن الصدور مع القانون العثماني عام 1914. كما يذكر محمد سليمان أن نجيب نصار الذي يعتبر أقدم الصحفيين الفلسطينيين، وكان يسمى «شيخ الصحافة»، لم يمتثل بسهولة لقرار الإغلاق الذي أصدرته الحكومة عشية الحرب العالمية الأولى، فطارده الجنرال التركي السفاح جمال باشا، فتوقفت «الكرمل» عن عددها الأول يوم 10 ديسمبر/كانون الأول 1908، وتوقفت قبيل الحرب العالمية الأولى.

كما أصدر علي الريماوي جريدة "النجاح" يوم 24 ديسمبر/كانون الأول 1908، وكانت أسبوعية سياسية أدبية علمية زراعية، هدفها تحسين صورة الحكومة العثمانية وعلاقتها بسكان فلسطين.

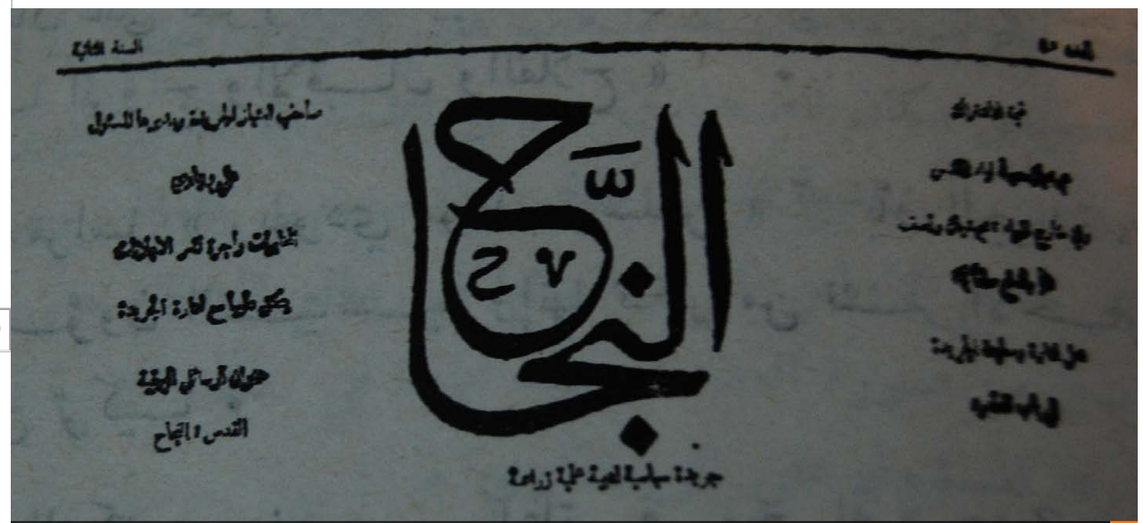

صحيفة النجاح التي أصدرها الشيخ علي الريماوي في 24 ديسمبر/كانون الأول 1908.

الصدور بعد أن تمكن نصار من الهرب إلى مصر وأقام بها حتى نهاية الحكم التركي، وعاد بعدها أثناء الاحتلال الإنجليزي ليعاود إصدار صحيفته.

وفي النصف الثاني من عام 1908 ظهرت عدة صحف في آن واحد، فقد أصدر بندلي إلياس مشحور "الإنصاف" كجريدة سياسية علمية أدبية إخبارية فكاهية، تصدر مرتين بالأسبوع، وصدر كما صدرت أربعة أعداد فقط من جريدة «بشير فلسطين» أيضاً ابتداء من ديسمبر/كانون الأول 1908، وعرّفت عن نفسها بأنها جريدة سياسية أدبية تجارية، وكانت أرثوذكسية تتبنى خطاً مناوئاً للأرثوذكسيين الوطنيين.

وفي يناير/كانون الثاني 1911 أسس عيسى داود العيسى ويوسف العيسى جريدة "فلسطين" في يافا كصحيفة نصف أسبوعية سياسية إخبارية أدبية مصورة. اتُّهم عيسى العيسى بأنه قومي عربي، ونفته السلطات التركية إلى الأناضول، وبعد سقوط الدولة العثمانية عاد وأصدر في يافا جريدة "فلسطين" التي أصبحت أم الجرائد الوطنية الفلسطينية في تلك الفترة.

أما صحيفة «صوت العثمانية» التي تأسست بمدينة يافا في يناير/كانون الثاني 1914، فقد ذكر أنها كانت لسان حال اليهود الصهاينة؛ بالعربية.

وفي فبراير/شباط 1912 صدرت جريدة "المنادي"، وكانت أسبوعية عمرانية تنادي بالإصلاح، ورغم أن صاحبها سعيد جار الله كان مديراً للسجون، فإن محررها محمد

موسى المغربي كان جريئاً بنقده للسلطة، مما تسبب في إغلاقها في يوليو/تموز 1913.

وفي ذات العام 1913، أصدر جميل الخالدي جريدة "الدستور". وفي مارس/آذار 1914 أصدر بكري السمهوري جريدة "الاعتدال"، بحسب يعقوب يهوشع.

المجلات المتخصصة

حتى يناير/كانون الثاني 1909، استطاعت عشرون مطبوعة فقط الحصول على تراخيص صدور، ورغم أن هذا العدد من الصحف والمجلات يعدُّ كبيراً في بلد قليل السكان وبه نسبة أمية عالية، فإنه يعكس بشكل كبير رغبة جماهيرية نحو التحرر وبناء الهوية الوطنية. وفي الوقت ذاته، يمكن أن نرى جانباً سلبياً لهذا التعدد تحدث عنه ناشر مجلة «الأصمعي» حنّا عبد الله العيسى في العدد التاسع من السنة الأولى بتاريخ الأول من يناير/كانون الثاني 1909، واقترح له حلولاً بقوله: «ليس في كثرة الجرائد عميم الفائدة.. إذ كثيراً ما نرى الخبر الواحد تتناقله عدة جرائد بحرفه الواحد، وكثيراً ما نراها متشابهة في جميع أبوابها إلا ما كان من تفاوت محرريها في التحرير.. الأمة أحوج لتعلم المسائل الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية والإدارية وما شاكل ذلك، الأمر الذي لا يتأتى لصحف الأخبار التوسع فيه، بل هو من خصائص المجلات، فعليكم أيها الصحفيون الإكثار من نشرها لتنقل للأمة علوم وآداب وعادات واصطلاحات الأمم المتمدنة».

وكانت أولى المجلات المكتوبة التي عرفتها فلسطين هي مجلة «باكورة جبل صهيون»،

وقد صدرت عام 1905 دون ترخيص الأستانة، وكان يحررها طلاب الصف الأعلى في مدرسة صهيون التبشيرية، ومن هنا جاء اسم المجلة، وليس لها علاقة بالحركة الصهيونية. ثم أسس مارتين ألونزو في يافا عام 1907 مجلة «الترقي» كمجلة تبحث في المواضيع الأدبية والاجتماعية، وحررها عادل جبر، وصدرت مرتين في الشهر، ولاحقاً مرتين أسبوعياً، وقد وصفت حينها بأنها أولى الصحف ذات الطابع العصري، وساعدها في ذلك استعمالها للخدمات البرقية والمراسلين الذين زودوها بالأخبار العالمية. وفي الأول من سبتمبر/أيلول 1908 أصدر حنّا عبد الله العيسى مجلة «الأصمعي» في القدس، وشارك في تحريرها خليل السكاكيني، وكتب فيها عدد من المثقفين من بينهم إسعاف النشاشيبي ومنانة الصيداوي. وأصدر خليل بيدس في نوفمبر/تشرين الثاني 1908 مجلة «النفائس العصرية» الأسبوعية في حيفا، وكانت من أوائل المجلات الأدبية المتخصصة التي تنشر ترجمات من الأدب الروسي وموضوعات أدبية ومعرفية فكاهية.

وفي ذات العام أصدرت بطريركية الروم الأرثوذكس مجلة «صهيون الجديدة» واهتمت بالمواضيع الدينية والكنسية للطائفة. وفي يافا أسس توفيق السمهوري مجلة «الحرية» في يونيو/حزيران 1910 كمجلة متخصصة بالمواضيع الأدبية والاجتماعية والفكاهية والقصصية. وفي أغسطس/آب 1913 أسس محرر جريدة «المنادي» محمد موسى المغربي، مجلة «المنهل» في القدس، كمجلة أدبية تاريخية واجتماعية شهرية.

في أواسط العام 1914 عندما صدر قرار الحكومة العثمانية بإيقاف إصدار تراخيص الصحف بمناسبة إعلان الحرب العالمية الأولى، كان عدد المطبوعات في فلسطين قد بلغ 39 مطبوعة، وخلال الحرب لم تصدر سوى مطبوعة واحدة، كانت آخر مطبوعة تصدر في فلسطين في العهد العثماني، وهي مجلة «الصحراء المصورة» العربية التركية التي أصدرها في سبتمبر/أيلول 1916 جمال باشا قائد الجيش التركي الرابع في مدينة بئر السبع التي اتخذ منها مركزاً لقيادته أثناء الحرب، وأسماها مجلة «جول مصور». وبذلك يكون عدد المطبوعات التي صدرت في فلسطين خلال العهد العثماني وحتى عام 1918 قد بلغ أربعين مطبوعة على وجه التقريب، من بينها ثلاثون جريدة، بحسب يوسف خوري.

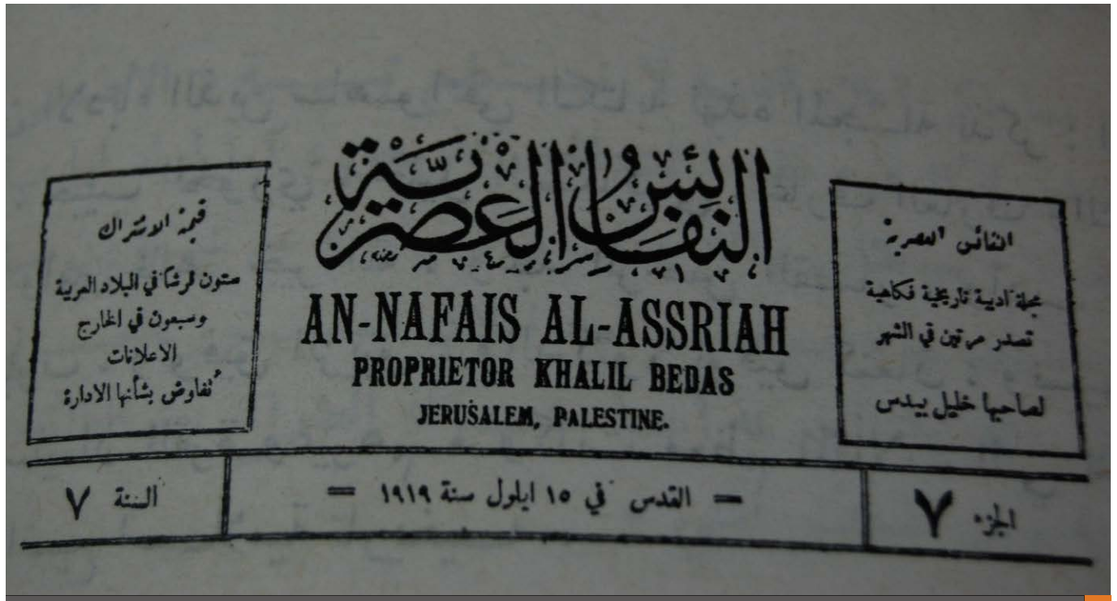

مجلة النفائس العصرية، التي أصدرها خليل بيدس في نوفمبر/تشرين الثاني 1908 كأسبوعية في حيفا.

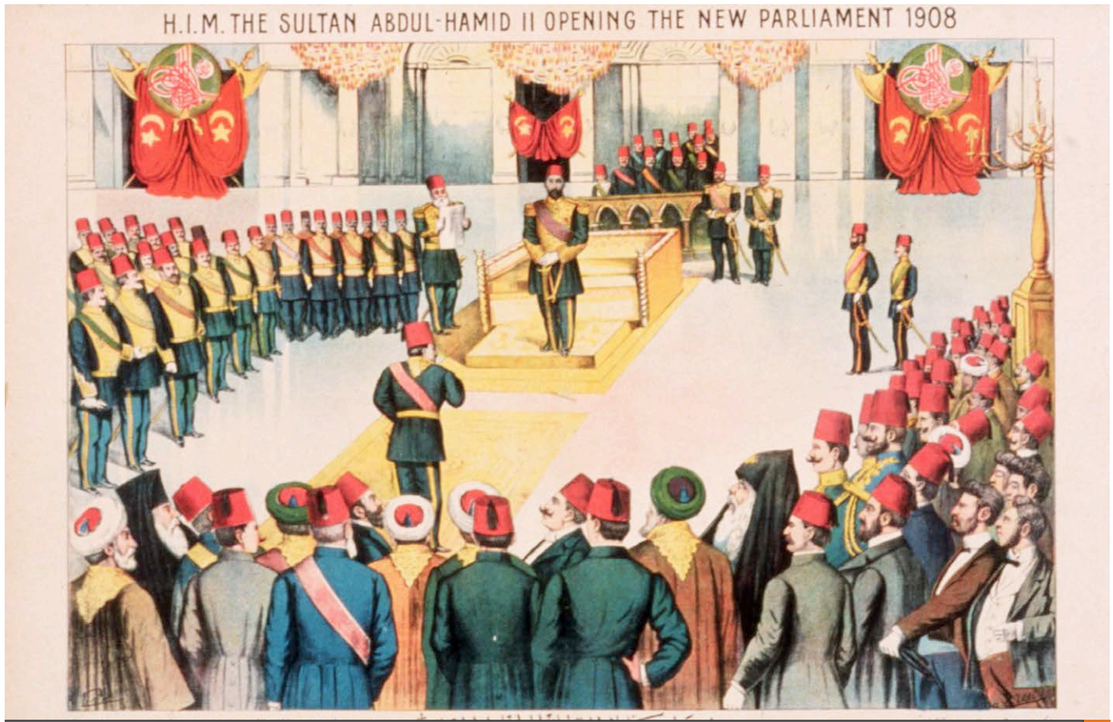

السلطان العثماني عبد الحميد الثاني يفتتح البرلمان عام 1908، تبع ذلك إعلان الدستور العثماني والمطالبة بتراخيص أكثر للصحف - غيتي.

حكاية القرويين مع الإذاعة

اعتماد سلام

الصحفي إسماعيل أيت حماد متوسطا مجموعة من القرويين بعد لقاءات إذاعية معهم جنوب المغرب.

في قلب المغرب الشرقي، وتحديدا في مدينة "قلعة مكونة" التقيت "تودة".. امرأة خمسينية بسيطة وسمحة المحيا، كانت تجلس وراء طاولة مرتبة بعناية تعرض فوقها مجموعة من المنتجات المصنوعة من الورود التي تُعرف المنطقة بزراعتها. قدمت "تودة" من قرية "أيت واسيف" النائية للمشاركة في أحد المعارض، وفاجأتني وأنا بصدد تسجيل حوار إذاعي معها حول منتوجاتها المعروضة للبيع بمعرفتها الدقيقة للإذاعة ولأسماء طاقمها فردا فردا، بل حدثتني عن باقي الإذاعات وما تحب الاستماع إليه من البرامج المقدمة في كل واحدة منها، رغم أنها شكت من انقطاع بث بعضها بشكل متواتر.

في العديد من المناطق المنسية والقرى النائية عبر جهات المغرب المختلفة، ظل المذياع منذ سنوات طويلة أنيس الكثيرين وصندوقهم السحري الذي يجلب لهم الأخبار والموسيقى والحكايا، ويعرفهم على ما يجري بعيدا عن قراهم، مشكلا نافذتهم على العالم الخارجي. و"تودة" التي تعتبر نفسها مستمعة قديمة للإذاعة، رددت مرارا "لقد تعلمت الكثير منها"، قبل أن تسألني بدهشة شخص لا يصدق: "هل حقا سيبث صوتي عبر الأثير؟".

الارتباط والشغف بالإذاعة أو «الراديو» لدى تودة تتقاسمه معها نساء كثيرات التقيت بهن خلال مهمة عمل أخذتني إلى مناطق المغرب الشرقي النائية، وأكدن أن يومهن لا يمر دون أن يتخلل أنشطته الاستماع «للراديو» رغم الأشغال الكثيرة التي عليهن القيام بها داخل البيت وخارجه.

الراديو يكسر العزلة عن القرية

ربما يمكن القول إن ارتباط سكان القرى والدواوير بالراديو نابع من احتلاله الصدارة كوسيلة إعلامية، أكثر من باقي الوسائل الأخرى كالتلفاز أو الجريدة، وهو ارتباط قديم قدم انطلاق البث الإذاعي في المغرب. ويرجع الصحفي والإذاعي المغربي يونس الشيخ أسباب شعبية الإذاعة وكونها الوسيلة الإعلامية الأكثر تداولا وانتشارا في الوسط القروي، إلى لغتها البسيطة والمفهومة، بالإضافة إلى كونها أقل وسائل الإعلام تكلفة بالنسبة للجمهور. كما أن الراديو بشكل خاص يمكن أن تصغي إليه بينما تلتفت لقضاء أشغال أخرى في نفس الوقت، «إذ ليس مطلوبا منك أن تركز نظرك على الشاشة مثلا أو على الصحيفة لقراءة سطورها»، وهذه العناصر

«مريـة»، قرويـة مغربيـة تجـاوزت الأربعيـن، لـم تدخـل المدرسـة لكنهـا تعلمـت مـن البرامـج الإذاعيـة كيـف تتحـدث بلغـة عربيـة صحيحـة. كما أكسـبها الاسـتماع لنشـرات الأخبـار عبـر الإذاعـة، معرفـة بالشـؤون الدوليـة والمغربيـة.

مجتمعة ساهمت -برأيه- في زيادة شغف الناس في العالم القروي بالإذاعة واعتمادهم عليها كمصدر للأخبار والترفيه والاستئناس والخدمات أحيانا.

ويمكن القول إن الإذاعة ساهمت في فك العزلة ولو رمزيا عن كثير من سكان القرى والمناطق البعيدة الذين أضحوا أكثر قربا من المعلومة واطلاعا على ما يجري في محيطهم. لكن ارتباط سكان القرى بالإذاعة قد تكون له أسباب أكثر عمقا من كونها مجرد وسيلة إعلامية متاحة للجميع، فكثير منهم وجدوا فيها خلال مناسبات عديدة وسيلة لإسماع أصواتهم والتعبير عن احتياجاتهم وانتظاراتهم. يقول يونس إن الإذاعة كشفت معاناة أهالي القرى بسبب ضعف الخدمات الاجتماعية المقدمة لهم وقلة المراكز الصحية والأطر التعليمية، بالإضافة إلى رداءة البنى التحتية، كما كانت الإذاعات أقرب وسائل الإعلام إلى سكان العالم القروي خلال حوادث كثيرة مثل الفيضانات وباقي الأحداث التي عاشوها، وقد أسهمت الإذاعة بشكل مباشر في إسماع صوتهم للمسؤولين عبر أمواجها، مؤكدا أنه عندما كان يشرف على إعداد وتقديم نشرات الأخبار كان يحرص دائما على أن تتضمن أخبارا حول العالم القروي، خصوصا القضايا التي تهم المرأة القروية.

دور أكبر للإذاعة في حياة القرويين

قبل سنوات قليلة كانت الإذاعة في المغرب تختزل في الإذاعة الوطنية الرسمية، وبعدها إذاعة البحر الأبيض المتوسط الدولية، وهما الإذاعتان الرائدتان في البلاد، قبل أن تتم عملية ما يسمى تحرير القطاع السمعي التي تم بموجبها منح تراخيص البث لمجموعة من الإذاعات الخاصة. خطوة ترافقت مع التطور التقني الذي سمح بالاستغناء عن المذياع كجهاز.. يقول محمد الذي ينحدر من قرية «أولاد زراد» القريبة من مدينة قلعة السراغنة، وهو واحد من المستمعين الأوفياء للإذاعة، إنه كان يحمل معه جهاز الراديو أينما ذهب، سواء أكان في البيت أو في الحقل، أما الآن فقد بات الأمر سهلا مع الهواتف المحمولة التي باتت توفر خدمة الاستماع لأي إذاعة شئت.

بدورها تقول «مرية» التي جاوزت الأربعين من عمرها وتقطن في دوار "العناكير" التابع لإقليم الرحامنة، إنها لم تدخل المدرسة قط ولم تتعلم، لكنها تدين للإذاعة بالشيء الكثير، فقد تعلمت من البرامج التي تقدم عبرها كيف تتحدث بلغة عربية صحيحة، كما أنها على قدر كبير من المعرفة بمجريات مختلف الشؤون الدولية والمغربية بفضل ما تعتبره "إدمانها" على الاستماع لنشرات الأخبار عبر الإذاعة، وهي عادة ما زالت وفية لها حتى بعد ربط الدوار بالكهرباء وتوفرها على جهاز تلفزيون حديث، بل إنها حاليا أصبحت تتصل بشكل منتظم بالبرامج الإذاعية التي تستمع لها لتشارك فيها مباشرة على الهواء، وتدلي برأيها أو تقترح وصفة للطبخ أو تقدم تهنئة لأحد أفراد عائلتها أو تستشير طبيبا من الأطباء الذين تتم استضافتهم، أو غير ذلك حسب طبيعة البرنامج المقدم وموضوعه.

وارتباطا بما سبق، فإن تحرير القطاع السمعي جعل الإذاعة تقتحم الحياة الشخصية للناس في المدن كما في القرى، إذ انتشرت البرامج التي تعتمد على التفاعل والاتصالات المباشرة للمستمعين وتسمح لهم بالتحدث في كل المواضيع بما فيها الشخصية أحيانا.

ومن بين القصص التي يحكيها الصحفي والإذاعي المغربي يونس الشيخ في هذا الصدد، قصة فتاة قاصر تنحدر من إحدى القرى التابعة لإقليم زاكورة، هربت من عائلتها بعدما تم إرغامها على الزواج رغم رفضها. وبعد ذلك بفترة رغبت الفتاة في العودة إلى أهلها ومصالحتهم، لكن الأسرة رفضت، فتوجهت الفتاة إلى الإذاعة وسجلت مناشدة لوالديها تم بثها عبر الأثير خلال إحدى نشرات الأخبار، وعلى إثر ذلك تضامن سكان القرية معها وتوسطوا لدى والديها اللذين تأثرا بمناشدتها أيضا فسامحاها ورحبا بعودتها إلى البيت.. "وهذا أمر أسعدني جدا لأنه عبر الإذاعة استطعنا لمّ شمل هذه الفتاة بعائلتها من جديد» يضيف يونس.

اعتماد سلام خلال تسجيل حوار إذاعي مع نساء قرويات بضواحي مدينة قلعة مكونة.

صورة التقطت خلال إنجاز ربورتاج للإذاعة حول التعاونيات النسائية في القرية بمنطقة تافراوت.

حب من طرف واحد

في مقابل المكانة التي تحظى بها الإذاعة لدى سكان العالم القروي، هل تؤخذ اهتمامات هؤلاء بعين الاعتبار ضمن برامج الإذاعات؟ سؤال يقودنا البحث عن إجابته إلى محاولة حصر البرامج الموجهة أساسا إلى سكان القرى عبر مختلف الإذاعات المغربية، التي لا يكاد يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة باحتساب البرامج أو الكبسولات الموجهة للفلاحين بشكل خاص، إذ التقطت بعض الإذاعات هذا التأثير الكبير والمباشر للإذاعة على حياة الناس في القرى، فخصصت برامج موجهة بالأساس إلى سكان العالم القروي. ومن بين البرامج التي لقيت شهرة كبيرة، برنامج «ريحة الدوار» الذي يقدم عبر إذاعة خاصة منذ أكثر من سبعة مواسم، وينتقل طاقمه عبر كل حلقة إلى منطقة من المناطق القروية حيث تتم استضافة كبار أهلها للحديث عنها وعن طبيعتها وعاداتها وتاريخها في دردشة إذاعية خفيفة وممتعة.

في المقابل ارتأت إذاعات أخرى الاكتفاء بمخاطبة سكان الحواضر دون تكييف برامجها مع احتياجات سكان القرى، وذلك بتأثير مباشر أو غير مباشر لأصحاب الإعلانات التجارية الذين لا يرى أغلبهم في المستمعين القرويين قوة شرائية. بل من الإذاعات من لم تعمل على تعزيز شبكة بثها ليصل إلى المناطق القروية النائية بشكل جيد، وهو ما يفسر الانقطاع المتكرر أو ضعف جودة البث في الكثير من أحواض الاستماع.. يقول يونس الشيخ إن برامج وخدمات الإذاعات في المغرب عموما لم تصل إلى مستوى «مساواة» القرويين بسكان المناطق الحضرية، إذ يرى أن «أغلب ما يثار حول العالم القروي في الإذاعات المغربية مجرد اجتهاد شخصي للصحفيين العاملين فيها، وليس نابعا من رؤية واضحة لدى المؤسسات الإذاعية». وهذه نقطة تطرح أكثر من سؤال حول مدى تقيد هذه الإذاعات بدفاتر الشروط التي حصلت بناء عليها على تراخيص البث، والتي تنص معظمها على تخصيص برامج موجهة إلى المناطق القروية ومخاطبة سكان القرى.

وحتى مع تباين اهتمام الإذاعات بهذه الفئة من المستمعين، فإن شغف القرويين بالإذاعة لا ينتهي ولا يتقادم، وارتباطهم بها لا يفكه شيء رغم منافسة القنوات التلفزية، ذلك أن الإذاعة تبقى شيئا ساحرا ليس فقط للمستمعين سواء أكانوا من القرية أو المدينة، بل بالنسبة لنا كصحفيين عملوا في الإذاعة وارتبطوا بالميكروفون لسنوات وأدركوا أن للصوت المبثوث عبر موجات «الميغاهيرتز» أو «الأف أم» تأثيرا وجاذبية قد تفوق الصورة أحيانا، شريطة أن يكون صادقا، لأن المستمع قادر على تمييز ذلك الصدق والتقاطه حتى لو كان قابعا في أكثر القرى النائية بعدا.

مقابل المكانة التي تحظى بها الإذاعة لدى سكان العالم القروي. هل تؤخذ اهتمامات هؤلاء بعين الاعتبار ضمن برامج الإذاعات؟. من لقاء إذاعي مع قرويين جنوب المغرب.

إشكالية المصطلحات.. إعلام أم اتصال؟

بشير الكبيسي

ارتكز الخلاف على عنصرين من عناصر العملية الاتصالية هما: المرسل والمستقبل، وعلى طبيعة العلاقة بينهما. وكانت كل نظرية تفسِّر تلك العلاقة، تتواءم والحقبة الزمنية والظروف السياسية التي خرجت فيها.

لا تخلو العلوم الإنسانية مِن الجدل القائم بين دارسي تلك العلوم ومنظريها، وهذا ما يميزها عن غيرها من العلوم، فهي علوم تتسم بالمرونة والتطور، وتحتمل الكثير من التأويلات والقراءات المتعددة، بغض النظر عن عدم إمكانية ضبطها بالمقارنة مع العلوم الطبيعية، ولكن ذلك الجدل القائم بين المختصين، يصبُّ دون شك في مصلحة تقدم العلوم وتطورها ومجاراتها لروح العصر.

هذا الطرح يشمل أيضاً «علوم الاتصال»، وقد نشب خلافٌ بين المهتمين بهذا الحقل منذ القرن التاسع عشر، ارتكز في الأساس على عنصرين مهمين من عناصر العملية الاتصالية، هما المرسل والمستقبل، إضافة إلى طبيعة العلاقة القائمة بينهما. وكانت كل نظرية تفسِّر علاقة المرسل بالمستقبل أو العكس، تتواءم والحقبة الزمنية والظروف السياسية التي خرجت فيها.

في تلك الحقبة -أي في القرن التاسع عشر- خرجت بعض النظريات ومنها «النظرية الخطية» التي تؤمن بأن الرسالة -أحد عناصر العملية الاتصالية- تنتقل من المرسل -أي القائم بالاتصال- إلى المستقبل بخطٍ مستقيم، أي أن المرسل يفرض ويُملي ما يُريده على المستقبل، وفي نفس الوقت يُقصي كلّ الآراء والأفكار والتوجهات التي ربما تمثل فئات عدة من المجتمع، إلا أنها لا تتناسب مع مصالحه لكونه يُرسل مِن موقع السلطة، وهذا ما أسمته الباحثة اللبنانية حياة الحويك عطية «دكتاتورية المرسل».

ومنها أيضا نظرية «الإبرة المخدرة»، وجوهر هذه النظرية يقوم على أن وسائل الإعلام والاتصال تعرف ما تبثه من معلومات وآراء وأفكار وتوجهات، ولكن الرأي العام لا يعرف. ونلاحظ هنا أن مثل هذه النظريات تتناسب بطريقةٍ أو بأخرى مع مساحة الحرية التي كانت متاحة في القرن التاسع عشر ومع وعي الرأي العام وانفتاحه آنذاك.

هذه المعطيات أفرزت بعض الإشكاليات بين المختصين،

هل يمارس المرسل، في العملية الاتصالية، سلطة إجبارٍ تمثل وجهات نظر السلطة السياسية؛ على المتلقي الذي لا يستطيعَ أن يعبر عن وجهات نظرهِ؟ - رويترز.

منها: هل العلاقة بين المرسل والمستقبل قائمة على الإكراه والإجبار والتسلط، أيْ ممارسة سلطة المرسل لكونه يمثل وجهات نظر السلطة السياسية؛ على المتلقي لكونه لا يستطيع أن يعبر عن وجهات نظرهِ بسبب احتكار عملية «الإعلام» من قبل المرسل، أم أنها قائمة على النقاش وتبادل الآراء والتعددية وقبول مختلف مكونات المجتمع، أي قائمة على «الاتصال والتواصل»؟

تكمن هذه الإشكالية في الاختلافين العلمي والعملي بين مصطلحي «الإعلام» و«الاتصال»، فالمصطلح الأول أقدم من الثاني، و«الإعلام» مصطلحُ كان يتناسب مع الحقبة الزمنية التي ذكرناها ومع النظريات التي خرجت في ذلك الوقت، أما مصطلح «الاتصال» فقد أسست له مدرسة «Culture studies» التي ركّزت على دور ومركزية المتلقي ضمن العملية الاتصالية، وألغت احتكار المرسل للرسالة، إضافةً إلى أن مفهوم الاتصال تزامن مع بزوغ نور الثورة الرقمية التي أضافت بدورها مزيداً من الأدوات التفاعلية التي تمكِّن المستقبِل من إبداء رأيه والتأثير في الرسالة التي يبثها المرسل.

على مستوى الوطن العربي، لا تزال هذه الإشكالية موجودة، سواء على المستوى الأكاديمي أو العملي، فالكثير من الجامعات والكليات والمعاهد والفضائيات العربية تعتمد مصطلح «الإعلام» وفلسفته، والخلط حاصل بين هذين المصطلحين، سواء بين المختصين أو الدارسين أو بين المشتغلين في الميدان. لمعالجة هذه الإشكالية، التقيتُ بعض المختصين في مجال علوم الاتصال، وطرحت عليهم السؤال التالي: ثمة إشكالية تكتنف مصطلحي «الإعلام» و«الاتصال»، هل لكَ/لكِ أن تطلعنا/تطلعينا على هذه الإشكالية؟ وهل هي برأيكَ/برأيكِ مرتبطة بالاستراتيجية الإعلامية المتبعة في المنطقة العربية، وبسقف الحرية المتاح؟

يقول أستاذ الصحافة والإعلام تيسير أبو عرجة: معلوم أن وسائل الإعلام عندما ظهرت أخذت هذه التسمية، وكان يعني بشكلٍ أو بآخر «الأخبار»، ولكن بمرور الوقت تبيّن أن الجمهور الذي تُوجّه له الرسائل الإعلامية هو أيضاً عنصرٌ فاعل، وقد يؤثر في الرسالة من خلال ردود الفعل (Feed back)، وكأننا أمام فعل تواصلي، أخذُ وعطاء، إعلامُ وردُ فعل.. الأمر الذي فرض وأكد أن مصطلح الاتصال أكثر شمولاً. ولكن في الوطن العربي هناك ترابط وقرب واضح بين المصطلحين، وكأنه يُقصدُ بهما شيء واحد. يعتقد أبو عرجة أن استخدام مصطلح «الاتصال» أدق من الناحية الأكاديمية رغم أن الألسنة درجت على اعتماد مصطلح الإعلام بسبب قِدمه، ومع هذا فهو لا يجد أي خطورة في اعتمادنا على مصطلح الإعلام أو الاتصال.

فيما يتعلق بارتباط هذه الإشكالية بسقف الحرية المتاح في المنطقة، يقول أبو عرجة: لا أعتقد أن لهذه الإشكالية علاقة بهامش الحرية، بقدر أن مصطلح الاتصال فرضه التطور التقني.. وفيما يخص الحرية، هي قرار وجهد وكفاح وتعتمد على البيئة المتاحة والنظام السياسي القائم؛ هل هو نظام ديمقراطي أم شمولي؟ ولكن أقول إن الاتصال كمعنى هو من الفعل التواصلي الذي يؤمن بأن الإعلام أخذ وعطاء.. فعلُ وردّ فعل.

أما الأستاذ المتخصص بالصحافة عبد الرزاق الدليمي فقد فرّق بين مصطلحي الإعلام والاتصال بقوله إن الاتصال كمنظومة فكرية وعلمية أوسع من الإعلام، وهذا الأخير يدخل كجزء من مكونات العملية الاتصالية، وإذا تحدثنا عن الإعلام ضمن المنظومة الاتصالية فهذا يعني إيصال معلومات «إيجابية» ليطلع الجمهور على مختلف الآراء والأفكار، ويساعدهم في تشكيل آرائهم وتوجهاتهم إزاء القضايا والموضوعات والأحداث التي يطرحها الإعلام. أما الاتصال فيشمل الإعلام والدعاية والإعلان، ويدخل ضمن عمل العلاقات العامة. يقول الدليمي إن أصل الإشكالية ناتج عن عدم تخصص البعض في دراسة علوم الاتصال، والبعض لا يميز بين الأصل والفرع، فالأصل هو الاتصال، والفرع هو الإعلام، والدعاية والإعلان، والعلاقات العامة. ولا يرى الدليمي أن الإشكالية مرتبطة بمسألة الحرية، فهي تتعلق -حسب رأيه- بالاتصال كمنظومة وتفرعاتها الأخرى، فالاتصال إذا كان إيجابيّاً ويخدم

أضافت الثورة الرقمية مزيداً من الأدوات التفاعلية التي تمكِّن المستقبِل من إبداء رأيه والتأثير في الرسالة التي يبثها المرسل - رويترز.

المجتمع يمكن أن نقول عنه «إعلاما»، وإذا كان يستهدف التضليل ويخاطب الغرائز فهو دعاية، وإذا كان يحث على اتباع سلوك شرائي معين فهو إعلان.

وأخيراً، يعتقد الدليمي أن ما يجري في المنطقة هو دعاية وليس إعلاماً.

بالانتقال إلى الباحثة حياة الحويك عطية، سنلاحظ أن ثمة اختلافا في وجهات النظر التي تتبناها بالمقارنة مع أبو عرجة والدليمي، إذ تعتقد أن الإشكالية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحرية والعملية الديمقراطية. ابتداءً، تجيب الحويك على السؤال الذي طرحته بالقول: نحن أمام أربعة مصطلحات مهمة، وهي: الإعلام والاتصال والاستراتيجية والحرية.. ولا يوجد شك في أن الاتصال هو المظلة التي تجتمع تحتها الكثير من العناوين.

«لكن ما يهمنا نحن، هو ما يسميه العرب «إعلاما» وترجمته «Information» من «To inform»، والجدل بين المصطلحات قام منذ نشأة هذه العلوم، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بين المرسل والمستقبل، وكان سابقاً ينظر إلى أن المرسل حر والمستقبِل مكرَه كما كان يقول بعض العلماء المؤسسين الذين أكدوا أن الاتصال يسير بشكل خطيّ بين طرفي العملية الاتصالية، أي بين المرسل والمستقبل، ولكن جاءت مدرسة «Culture studies» في بريطانيا ونقضت كل النظريات القديمة، علما بأن النقض لم يكن مفاجئاً، بل حصل هناك تطور مستمر من الاتصال الخطي، إلى التغذية المرتدة، إلى الاتصال الدائري. وتعني نظرية الاتصال الخطي التي اكتشفها «شانون» أن الاتصال يسير بخطٍ مستقيم من المرسل إلى المستقبل، وأكد شانون أن المرسل «حر» أما المستقبل فهو «مكره»، لأنه لا يمتلك أية خياراتٍ أخرى، فالمرسل يحتكر عملية الاتصال ويملي ما يُريد على المستقبل.

أما نظرية التغذية المرتدة لمؤسسها مالفين دي فلور، فقد جاءت بعد النظرية الخطية، وتُعدُّ نقلةً نوعية في علوم الاتصال، فلأول مرة يتم منح المستقبِل الأهمية، فقد أكد دي فلور أن المستقبل يؤثر على الرسالة ويمنح المرسل تغذيةً راجعة، معتمداً في نظريتهِ على المبدأ العظيم في الفيزياء، وهو أن لكلِّ فعلٍ ردّ فعل. الجدير بالذكر أن هذه النظرية تزامنت مع تطور تكنولوجيا «التلفزيون الكبلي»، مما أثر في عملية الإنتاج والتوزيع.

ثم جاءت بعد ذلك ما سميت بنظرية "باولو آلتو" نسبة إلى المدينة الصغيرة في ضواحي سان فرانسيسكو، أو «نظرية الاتصال الدائري». وأقرت هذه النظرية بأن العملية الاتصالية عملية متعددة الوظائف والمهام، والمشاركون فيها ليسوا

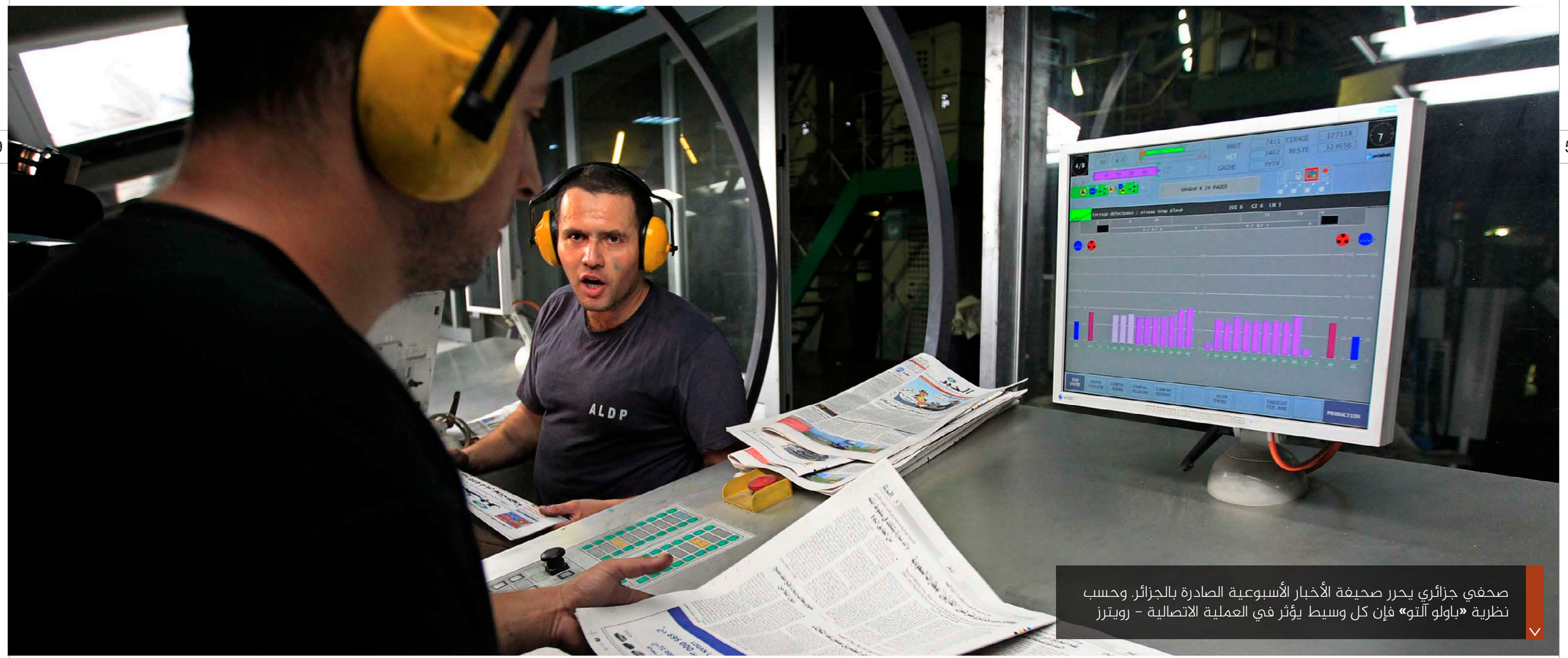

صحفي جزائري يحرر صحيفة الأخبار الأسبوعية الصادرة بالجزائر. وحسب نظرية **«باولو آلتو»** فإن كل وسيط يؤثر في العملية الاتصالية - رويترز

ثمة رأي يقول إن إشكالية المصطلحات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحرية والعملية الديمقراطية - رويترز.

فقط المرسل والمستقبل، ففي الصحف على سبيل المثال، هناك -إلى جانب المرسل والمستقبل- التحرير والتدقيق والمطبعة والتوزيع.. أي أن كل وسيط يؤثر في العملية الاتصالية.

تطرح الحويك سؤالاً: هل المرسل -سواء كان فرداً أو جماعة مثل المؤسسات الصحفية أو الإعلامية أو وزارة الإعلام- يُعلِم، أي أنا -بوصفي المرسل- «أُعلمك»، أم أن المرسل يتواصل (To communicate)، أي أنا أتواصل معك ولا أفرض وجهة نظر معينة، بل المستقبِل يتحكم بالرسالة أيضاً؟

تؤكد في هذا الصدد بالقول: من هنا يتحقق الارتباط الوثيق مع فكرة الحرية والديمقراطية، وفكرة قبول رأي الجمهور واحترام أفكاره وتوجهاته، وهذا يُعيدنا أيضاً إلى الآراء التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، خاصةً النظرة التي تنص على أن الجمهور عبارة عن حشود، عبر ثنائية غوستاف لوبون «محرِّكون ومحرَّكون - ومنوِّمون ومنوَّمون».. إذن -أكرر مرة أخرى- هناك رابط بين الحرية المتاحة في المنطقة وبين تمسكنا بمصطلح واستراتيجية الإعلام.

وتعتقد الحويك أن هناك فرقاً بين مصطلحي الاتصال والاتصال الجماهيري.. فثمة أمر مهم يحتاج إلى المزيد من العمق، وهو الفرق بين «الاتصال» و«الاتصال الجماهيري»، لأن شرط الاتصال الجماهيري (Mass communication)، هو «Mas“، وهذا ما يميزها عن وسائل الاتصال الأخرى، فالاتصال الجماهيري عبارة عن وجود مرسل وجمهور كبير، وهو النمط الذي تعتمده معظم الجامعات الغربية ومراكز البحوث الأنغلوسكسونية، ابتداءً من بريطانيا ومن مدرسة «Culture studies» التي وضعت تمييزاً واضحاً بين الفعلين “To inform” و“To communicate”. توافق الحويك على الطرح القائل بارتباط الإشكالية بالاستراتيجية الإعلامية التي تتبعها الدول العربية، فهي استراتيجية مركزية حالت دون خروج دولنا العربية من فلسفة مصطلح الإعلام. وتبررُ رأيها هذا بالقول: في كلّ أقطارنا العربية هناك وزارة إعلام تضع استراتيجية إعلامية محددة، تُسيّر بها وسائل الإعلام الجماهيرية الموجودة، وتسمح بما تريده هي، وتقمع ما لا تريده. وتضيف: مَنْ يتمسك بمصطلح الإعلام يتمسك بدكتاتورية المرسل، ويعتبر ما يرسله المرسل هو الصواب، حتى لو لم يعبّر عن مختلف الآراء والأفكار والتوجهات، وبذلك أنا لا أترك مجالاً لمبدأ الحوار، لكن عندما ننطلق من النقاش العام (Public debate) ومنها إلى الفضاء العام (Public sphere) وأخيراً إلى الرأي العام (Public opinion)، فهنا نحن نمارس عملية الاتصال الجماهيري (Mass communication) وليس الإعلام (Information).

سألتُ الحويك عن سبب وجود هذه السياسية «الإعلامية» حتى بعد ثورة الفضائيات العربية التي حدثت في تسعينيات القرن العشرين، فأجابت: لأن الفضائيات التي تم تأسيسها لم تخرج عن إطار ملكيات السلطة، ولكنها خرجت في الظاهر عن طريق أسماء خُيّل للناس أنها لا تتبع السلطة، وتفاؤلنا بإمكانية خروجنا من إعلام السلطة وإعلام الرأي الواحد ومن دكتاتورية المرسل لم يكن في محله للأسف، وهذا الرأي أقوله بعد دراسة معمقة لهذه الإشكالية.

رحلة الصورة الصحفية في الجزائر

رمزي بودينة

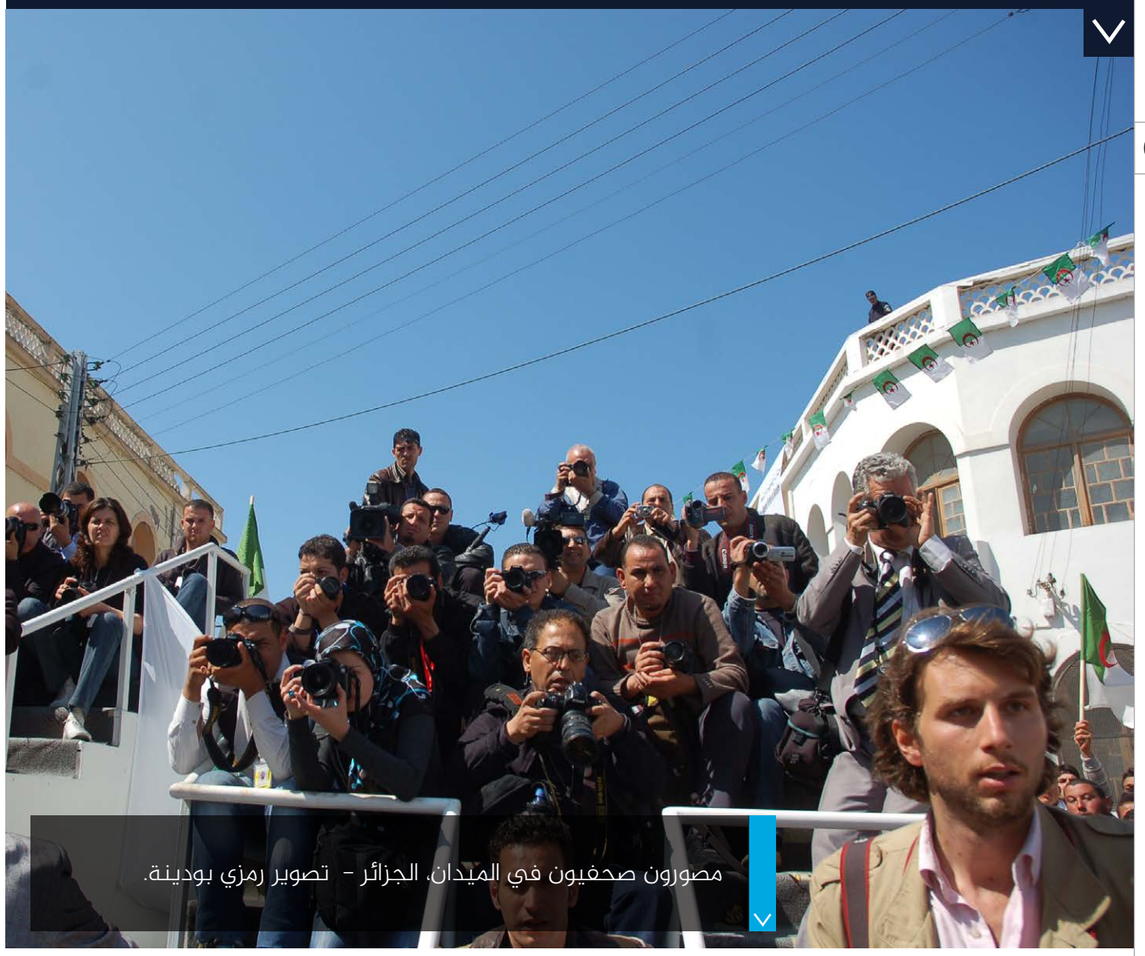

مصورون صحفيون في الميدان، الجزائر - تصوير رمزي بودينة.

في الذكرى السبعين لإنشاء هيئة الأمم المتحدة، طلبت عدة وكالات إعلامية دولية وجرائد من مصوريها في أكثر من 80 بلدا، التقاط صور لبعض المباني التي ستضاء وتُزيّن باللون الأزرق ليلا، احتفاء بتلك المناسبة. ومن بين 350 معلما اختير في جميع أنحاء العالم، كان للجزائر العاصمة نصيب وافر، إذ تقرّر إضاءة خمسة من معالمها.

وفي الموعد المحدد، توجَّهت مجموعة من المصورين الصحفيين الجزائريين إلى مناطق تلك المباني لأخذ صور خارجية لها وتنفيذ المهمة. وبطبيعة الحال، ابتدأ العمل ليلا في تصوير أول مبنى، لكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم محاطين وممنوعين من التصوير من طرف رجال الأمن بالزي المدني والبدلة الزرقاء، وهو اللباس الرسمي للشرطة الجزائرية. وبعد أخذ ورد، طلبوا منهم مغادرة المكان ومنعوهم من التقاط صور بدون تصريح، مع أن رجال الشرطة أنفسهم لا يعلمون من أين يؤخذ التصريح!

حينها، خاطب أحد المصورين زملاءه مازحا «جئنا لنصور مباني زرقاء فوجدنا أنفسنا محاطين باللون الأزرق من كل مكان».. غادر المصورون الصحفيون المكان وكلهم أسى لعدم ظهور صور المعالم الجزائرية مع نظيراتها في الدول الأخرى، وحسرة لا توصف إلى ما آلت إليها مهنتهم، بعد ما كان للصورة الصحفية في الجزائر من ثقلٍ في وقت مضى.

أول الحكاية

للصحافة والتصوير الصحفي في الجزائر تاريخ قديم يقسم إلى مراحل، أولها: مرحلة ما قبل الاستقلال، أي إبان الاستعمار الفرنسي، حيث كانت الصحافة قومية جماهيرية تحررية شعبية، وكان الاستقلال وتحقيق السيادة الوطنية في مضمونها كتابة وصورة؛ من أهم مطالبها. في تلك الحقبة الاستعمارية، ورغم أن المصورين الصحفيين الجزائريين كانوا قلة، فإنهم كانوا جزءا لا يتجزأ من النضال الثوري والسياسي. أما سلاحهم، فقد كان «آلات التصوير». بذلك السلاح، خلدوا أهم أحداث ثورة التحرير، إلى جانب بعض المصورين الأجانب الذين عملوا في سرية تامة داخل المجتمع الجزائري، فكان عمل الصحافة ينصب على تقوية الوعي والحس السياسي والثوري، وهو ما ساعد على التعريف بالقضية الجزائرية لدى الرأي العام العربي والدولي. وشهدت جل الصحف في تلك الفترة -سواء الناطقة باللغة العربية أو الفرنسية- مضايقات من طرف المستعمر، فكانت تطبع وتوزع وتنشر داخل الجزائر وخارجها بسريَّة.

ما بعد الاستقلال

في المرحلة الثانية وهي مرحلة ما بعد الاستقلال، أي بعد عام 1962، عرفت الجزائر صحافة حكومية، وكانت الجرائد وطنية نظامية مهمتها تعبئة الجماهير حول برامج سياسية واقتصادية وحكومية وحتى ثقافية.. جرائد ذات اتجاه واحد يمجد ولا ينتقد النظام الحاكم، وكل المواضيع تصب في مسار إيجابي، وكانت معالجة المواضيع السياسية تتم من زاوية واحدة هي زاوية سياسة الحزب الواحد آنذاك؛ أي أنها كانت تلعب دورا ترويجيا للمشاريع التنموية للبلاد اجتماعية كانت أو اقتصادية أو لقضايا دولية. وفي الوقت نفسه، لم تكن تتبع وتيرة الشعب الذي صار معظمه متفتحا على مجتمعات الدول الأخرى.

ومن هذه الرؤية جاءت مطالب داخلية تطالب بالانفراج الاجتماعي والسياسي، فانفجرت عنها أحداث وثورة شعبية ضد النظام الحاكم في 5 أكتوبر/تشرين الأول 1988، وأصبح هناك انفتاح أكثر في المجالين السياسي والإعلامي. وقد مثلت تلك الأحداث منعرجا حاسما وتغيرا جذريا انبثقت عنه التعددية الحزبية والإعلامية، وأعطى انطلاقة للصحافة الخاصة الحرة التي بدورها صارت تعالج المعلومة بصيغة جديدة تحمل وجه الإعلام المستقل، فصار للرأي العام منبر للنقد والتعبير عن رأيه، لكن هذه الفترة لم تدم طويلا.

المصور الصحفي لوكالة نيو برس، الراحل نبيل بلغول أثناء تغطيته لمظاهر الزلزال المدمر الذي ضرب مدينة بومرداس في مايو/أيار 2003.

آلاف الصور الصحفية في «العشرية السوداء»

في بداية التسعينيات عرفت الجزائر موجة عنف ودخلت في دوامة من «الإرهاب» أو ما يعرف «بالعشرية السوداء»، وهو صراع مسلح قام بين النظام الجزائري وفصائل متطرفة مسلحة تتبنى أفكارا إسلامية متشددة وعدوانية لكل من له صلة بالدولة ومؤسساتها، فلم يسلم من هذه المجموعات «الإرهابية» أحد، من أبسط مواطن إلى أكبر مسؤول في الدولة.

وكان من ضحايا هذه المأساة الأسرة الإعلامية، فقتل ما لا يقل عن 100 إعلامي جزائري من مذيعين ومدراء جرائد ووكالات وتقنيين ومقدمي نشرات.. إلخ.

ومن بين الكم الهائل من الضحايا، اغتيل أكثر من 60 صحفيا ومصورا صحفيا، كانوا يزاولون مهنتهم في مختلف الجرائد الصادرة بالعربية أو الفرنسية، وهذا ما دفع الكثير منهم إلى مغادرة مساكنهم وأهاليهم، ومنهم من غادر الوطن إلى بلدان أجنبية أكثر أمانا.

كانت يوميات الجرائد الجزائرية تفتح صفحاتها الأولى بصور الدمار والقتلى وخراب السيارات المفخخة، وكان للمصور الصحفي مكانة أساسية في الجرائد اليومية، فكان عملهم في الميدان تحديا لكونهم لم يكونوا مدرَّبين على تغطية مناطق النزاعات المسلحة، أو مؤهلين للعمل في ظروف حرب، وبجملة بسيطة فرضها الميدان كانوا «مصوري حروب». اقتصر عمل المصورين الصحفيين خلال تلك العشرية على تصوير الدمار والموت في عدة مناطق من الجزائر دون أدنى شروط الحماية المعتمد عليها في مثل هذه النزاعات المسلحة، فلم يكن لهم سترات أو خوذات واقية للرصاص.

لنتخيل كيف لمصور صحفي في بلاده أن يأخذ صورا لجيرانه أو عائلته التي قتلت على أيدي مسلّحين؟ ومن أين استمد القوة النفسية والعقلية لرؤية زميله في نفس الجريدة أو المكتب وهو جثة هامدة بعد اغتياله؟ وكيف له أن يأخذ صورا لزملائه وهم أشلاء متناثرة بعد تفجير مكان عملهم بسيارة مفخخة أو قنبلة، في حين أنهم -كمصورين صحفيين- كانوا هم أيضا معرضين للقتل أو الاختطاف في أي مكان أو زمان. في أحيان أخرى، كان المصورون

كشك لبيع الجرائد والمجلات في الجزائر العاصمة
تصوير: رمزي بودينة.

الصحفيون يصلون إلى أماكن التفجيرات والاغتيالات قبل وصول الإسعافات والتعزيزات الأمنية إلى تلك الأحياء أو القرى المتضررة. لنقل إن المصورين الصحفيين -من الرجال والنساء- في تلك الأزمة أثبتوا عصاميّتهم، وإن كان بينهم مخضرمون، إذ لم يكونوا خريجي جامعات أو معاهد إعلام أو تصوير صحفي، إلا أنهم عملوا -ولا يزالون- في أكبر الوكالات الإعلامية العالمية، ويغطون أكبر الصراعات والثورات والحروب سواء في العالم الغربي أو العربي، فأعمالهم الفوتغرافية تنشر في أكبر الجرائد والمجلات العالمية الأميركية والأوروبية والعربية، ومنهم من نال جوائز دولية في مجال التصوير الصحفي العالمي.

أمانٌ في البلاد وفوضى في الصحافة

في نهاية التسعينيات وبداية الألفية الثالثة، بدأت بوادر السلم والمصالحة تطفو على سطح المجتمع الجزائري، وهنا عرفت الصحافة المكتوبة انفتاحا وتدفقا هائلا لمختلف العناوين المقروءة، فأصبحت توزع أكثر من 120 جريدة يومية وأسبوعية ومجلة متخصصة، ولكن كل هذا الكم كان بعيدا عن التأطير والتنظيم، وكان للصحافة الجزائرية حق النقد والتعبير، أو بعبارة بسيطة «حرية التعبير»، لكن بدون المساس برموز الدولة والحريات الأساسية.

أعطت الدولة الجزائرية أهمية كبيرة للإعلام والصحافة بترسيم اليوم الوطني للصحافة الجزائرية يوم 22 أكتوبر/تشرين الأول من كل عام، إلا أنه ما زالت أمام الصحافة رهانات وتحديات وفراغات قانونية، كما أنها تعاني من نقص التأطير.

أما بالنسبة لحرية الصحافة دوليا فالجزائر في ذيل الترتيب العالمي. صحيح أنه لم يسجن أو يعاقب أي مصور صحفي في الجزائر، لكن عمل المصور حاليا تراجع كثيرا، سواء في الميدان أو في الجرائد، بسبب عدم إعطاء أهمية للصورة في مختلف الجرائد باستثناء عدد منها لا يتجاوز أصابع اليد. كما بات المصور الصحفي مطاردا من قبل عدة عواقب مهنية واجتماعية خلّفت أوضاعا

كانت الغلبة في تلك الفترة للصورة الصحفية، وكانت هيئة التحرير تتعاون مع المصور الصحفي في اختيار الصورة المرافقة للمادة المكتوبة، سواء أكان موضوعها أمنيا أو سياسيا أو حتى ثقافيا، وكانت أبسط صورة التقطت في إحدى الحفلات الفنية لمغنٍّ أو فنان جزائري أو أجنبي في الجزائر أثناء تلك الفترة المتأزمة، تطاولها مكانة وقيمة ولها قراءة سوسيولوجية وأمنية؛ فتلك الصورة البسيطة في مضمونها تمثل بصيص أمل للشعب الجزائري الذي ينتظر الأمن والطمأنينة والخروج من تلك الدوامة، وكان الجميع في هيئة التحرير من مدير إلى مركّب الصفحات يعمل باستشارة المصور قبل تركيب الصور في الجريدة أو بعدها.

مضايقات من طرف رجال الأمن في الميدان، الجزائر.
تصوير: رمزي بودينة.

حرجة بالنسبة له، إضافة إلى الدخل المتواضع جدا مقابل عملهم. كما أن بعضهم غير مشمول بالتأمين الاجتماعي رغم المخاطر التي تحدق بهم يوميا، وهم يفتقرون إلى أدوات العمل والحماية الميدانية من سترات أو قبعات أثناء تغطيتهم لمختلف الاحتجاجات أو التظاهرات الرياضية التي تتخللها أعمال عنف من رشق بالحجارة أو الغازات المدمعة. أما بالنسبة للجانب النقابي أو الجمعوي، فهم يفتقرون إلى نقابة أو فدرالية أو حتى جمعية خاصة بهم للدفاع عنهم وحمايتهم أو إعطائهم فرصا لإعادة التكوين.

وللإشارة، فإن الجزائر ليس بها جامعات أو مدارس خاصة بالتصوير الصحفي، ما خلا بعض مراكز التكوين المهني التي تعطي تكوينا في التصوير الفني بأسلوب نظري خال من أي تخصص. فمعظم المصورين في الجزائر يغطون مختلف الخرجات الرسمية الحكومية والمقابلات الرياضية في نفس اليوم، ورغم كل هذا النقص فإنهم لا يتفانون في تأدية عملهم بكل صرامة وروح المغامرة في الميدان. كما أن بعض هيئات التحرير لها دور بارز في تراجع عمل المصور وتردي أوضاعه، بسبب دخول بعض الانتهازيين وناقصي المهنية إلى مجال الصحافة المكتوبة، وبينهم مدراء نشر ومدراء تحرير، وهؤلاء ليس لهم أي علاقة قريبة أو بعيدة مع عالم الصورة الصحفية، بل

مضايقات من طرف رجال الأمن في الميدان، الجزائر.
تصوير: رمزي بودينة.

همهم الوحيد ملء صفحات الجرائد بصور دون مراعاة النوعية أو حتى أخلاقيات المهنة؛ من بث مصدر الصورة أو حقوق ملكية المصور أو الوكالة. كما أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي ومحركات البحث -مثل «غوغل»- منافسين للمصور الصحفي الجزائري، وصارت هيئات التحرير تعتمد على كل ما ينشر على مواقع الإنترنت وتأخذ تلك الصور بدون أي إذن أو تدقيق فيما يخص المكان والزمان، سواء أكانت وطنية أو دولية، وهو ما خلق نقصا في التنسيق بين هيئة التحرير والمصورين في نفس الجريدة أو المجلة، فصارت جلها خالية من التقارير المصورة على صفحاتها.

أما إذا تحدثنا عن العوائق الميدانية، فالقصة التي جاءت في بداية التقرير تصور الحال، إذ تكمن المضايقات في عدم السماح بالتصوير ومنع المصورين من العمل بحرية في عدة أماكن أو مناسبات، وفي أكثر الحالات يُمنعون من طرف رجال الأمن وبعض المسؤولين والمنظّمين حتى لو كان التصوير في أماكن عمومية التبعية، ورغم امتلاكهم البطاقات الصحفية المهنية أو توكيلات المهام، فقد أصبح إخراج آلة التصوير هاجسا وخطرا على المصور الصحفي في بعض الأماكن.

وحاليا، تعمل الحكومة الجزائرية والوزارة الوصية جاهدتين من أجل إعادة التنظيم وهيكلة الحقل الإعلامي في الجزائر، لكن دون إعطاء أي تصنيف أو تقنين لمهنة المصور الصحفي، وتركه في الخانات الأخيرة في سلم المهن، رغم أهمية الصورة الصحفية التي تشكل ذاكرة جماعية للإنسانية عبر الزمن.

مصورون صحفيون جزائريون يساعدون ويسعفون إمرأة أثناء إحدى الاحتجاجات،وكالة نيو برس. تصوير: سيدعلي جغبوب.

نصب تذكاري بساحة حرية الصحافة في الجزائر العاصمة، تخليدا لأرواح الصحفيين الجزائريين الذين اغتالهم «الإرهاب» خلال العشرية السوداء، تصوير: رمزي بودينة.

معهد الجزيرة للإعلام

ALJAZEERA MEDIA INSTITUTE